SATAN ON EARTH

برتراند راسل

الشيطان على الأرض



الكتاب: الشيطان على الأرض

المؤلف: برتراند راسل

إعداد وتقديم: خليل حنا تادرس



برتراند رسل

الشيطان على الأرض

إعداد وتقديم

خليل حنا تادرس



كلمة



يعتبر الفيلسوف الإنجليزي «برتراند رسل» في طليعة الفلاسفة المعاصرين، الذين قدموا للبشرية جمعاء منطلقات عقلانية فاعلة في الأفكار الإنسانية الرائعة إلى تحليل الوجود والموجودات، وفق أسس عرفانية، ومدركات رياضية، مبنية على ركائز تحليلية منطقية لكافة الرموز والإشارات العلمية واللغوية، وبذلك أوجد مذهب فلسفي إيجابي في الطبيعة وفي الإنسان.

ويبدو أن «برتراند رسل» لم يكن من أتباع مذهب «الوضعية المنطقية» كونه في مطلع حياته الفلسفية اعتمد على تحليل المدركات العلمية وخاصة المدركات الرياضية، كالعدد واللانهاية، والتفت إلى التحليلات المنطقية للعبارات العلمية، باعتبارها المجال الحقيقي للفلسفة والفلاسفة، ويمكن اعتبار «رسل» في ضوء أفكاره التي جسدها صراحة في كتاباته صاحب مذهب إيجابي في الطبيعة وفي الإنسان، مما يتناقض مع مذهب «الوضعية المنطقية» بمفهومه الدقيق.

ومما لا شك فيه بأن «رسل» شاء أن يجعل الفلسفة علمية

المنهج، بحيث تبتعد عما تعودته من تأملات وخيالات لا تتفق مع الواقع والحقيقة العرفانية المبنية وفق أسس حقانية عقلانية تسمو بالحقيقة إلى الكمال والمثالية. ولم يقف نشاط رسل الفلسفي عند هذا الحد بل وقف أفكاره ونظرياته في سبيل الإنسان وحريته الاجتماعية والسياسية وإنقاذه من طغيان التقاليد وظلم الحكومات، كون النظم السياسية والاجتماعية الموجودة في كافة أنحاء العالم -على اختلاف العصور- ليست سوى مؤامرة طاغية يقصد من ورائها الحد من حرية الفرد وتكبيله بالقيود، وشحن ممتلكاته العقلية، ومشاعره وأحاسيسه، بكل ما يحد من انطلاقاته وحريته.

عن هذا الفيلسوف يتحدث الكتاب الذي بين يدينا مقدماً سيرته كما رواها بنفسه ومستعرضا بعض أفكاره الفلسفية التي عالج فيها أهم النواحي الفلسفية والاجتماعية التي يعيشها مجتمعنا الحاضر.

خليل حنا تادرس

■ ■ ■

من أقوال برتراند رسل

- لن أموت دفاعا عن قناعاتى، فقد أكون مخطئا
- مهم كان الفرد منا عملاقا، فسوف ينحنى كى يأكل.
- الحب والكراهية كلاهما طاقة ثمينة، لا يصح أن نبددها فيمن لا يستحق.
- لا تزال الابتسامة أهم وسائل تمهيد ورصف الطرق.
- لن تسمع أبدا عن قرحة فى القلب، لأنه يتولى علاج الجراح بنفسه سرا.

■ ■ ■

الفيلسوف الذي حصل

على جائزة نوبل



مما لا شك فيه بأن أي مختص بتاريخ الفكر الحديث، يدرك جيدا بان برتراند رسل (1872- 1970م) رجل واسع المعرفة ثريُّها وقد أعطى كثيرا للفكر الإنساني بشكل عام، وبما اتسعت به رؤيته الشاملة، وقد زاوج بين علم الرياضيات والفلسفة مخترعا قوانين حسابية لإثبات ما كان يريد إثباته فقد كانت الرياضيات تشكل له الجانب الأول في حياته وقد ولد بملكة تمكنهُ من إجراء العمليات الحسابية المعقدة ذهنياً ودون الرجوع إلى كتابة الخطوات على ورقة وقد عاش قرابة المائة عام بعطاء متواصل يحب تلامذته ويمسك جيدا بمستمعيه يحب الشعر كثيرا ولا يكتبه ولد في عائلة أرستقراطية إنجليزية كبيرة عام 1872م نشأ يتيم الأب والأم إذ فقد أمه وشقيقته عام 1875 في الثالثة من عمره ثم فقد أباه بعد عام واحد فقط وقد بلغ الرابعة من العمر ولم يتح له أن يتعرف على والديه اللذين أنجباه وتصدر جيله كواحد أحد كبار فلاسفة القرن العشرين بدون منازع وبقي مساهما في تبسيط مبادئ الفلسفة، وأفكارها لكل من يريد أن يفهمها بشكل جاد، وقد تسلم جائزة نوبل عام 1950 تقديرا لانجازاته في مجال

العلوم والفلسفة ثم بشكل أخص تقديرا لانخراطه في المجال السياسي الإنساني التحرري فالرجل كان جامعا للمجد العلمي، والفلسفي، وأيضا المجد السياسي خدمة للبشرية، كان يعتبر نفسه مناضلا يسارياً على الرغم من أصوله الأرستقراطية وغناه، إذ بقيت الهموم السياسية والقضايا الكبرى تلازمه، ضد مصلحة الرأسمالية الغربية، والقوى المهيمنة. ولم يكن شيوعيا ماركسيا، ولكنه كان قريبا من الخط الاشتراكي ذي الاتجاه الديمقراطي، كان صديقا مقربا للعالم الفرنسي (جان بول سارتر) وشكل معه المحكمة الدولية (رسل/ سارتر) لمحاكمة جرائم الحرب التي ارتكبتها الولايات المتحدة في فيتنام عام 1890 دخل إلى جامعة كامبردج لدراسة الرياضيات والعلوم الأخلاقية أو الإنسانية، ونشر كتابا مهما تحت عنوان (مبادئ الرياضيات 1919م)، ثم بات بعدها ابرز كبار ممثلي الفلسفة التحليلية الإنجليزية، مستخدما المنطق الرياضي الدقيق لتوضيح المشاكل الفلسفية، وتحليلها أو تشريحها من أجل إيضاحها، وكان أحد مؤسسي الفلسفة التحليلية المضادة لفلسفة (هيجل) ومعارضا لمجمل الفلسفة المثالية الألمانية القائمة على المفاهيم التجريدية المعقدة، وغير الدقيقة بحسب رأيه إنها قائمة على الشطحات الفلسفية العمومية لا على العلم الفيزيائي أو الرياضي وإن الفلسفة الإنجليزية تختلف عن الفلسفة الألمانية والفرنسية لكونها فلسفة تطبيقية تابعة للعلم، وليست مستقلة بذاتها، وثمة فرق كبير، وشاسع بين أي نظرية، وتطبيقاتها فأي نظرية وان حملت براهين عدة وتكون غير خاضعة للتجربة الميدانية، تبقى مجرد نظرية، وحبرا على ورق فالتجربة العملية تعطي مشروعية للنظرية وتبقيها قيد الاستخدام وكانت كمشكلة أساسية تهمه، هل يمكن للإنسان أن يتوصل إلى المعرفة اليقينية المطلقة في هذا العالم؟ أي المعرفة التي لا يمكن لأي

إنسان عاقل أن يشك فيها أو ينقضها، وقد بقي برتراند رسل، أبداً، مناديا للسلام، مضاداً للحروب، والنزعات العسكرية، وكان يحمل موقفا مضادا لانخراط بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، فأدانوه بتهمة الانهزامية، والسلبية والجبن وأقالوه من منصب الأستاذية في جامعة (كامبردج) وأدخل السجن لمدة ستة أشهر بتهمة العصيان المدني، وبعدها وقع مع (البرت آينشتاين) بيانا ضد الأسلحة الذرية، لأنها فتاكة ومدمرة، وطالب بان لا يمتلكها أي إنسان، لأنه يدرك جيدا مدى فعاليتها عندما تستخدم في الحروب، وان أثاراها سوف تبقى على مدى السنين مؤثرة في الأجيال القادمة لما تمتلكه من خطورة على البيئة والحيوان، إذ تخلخل نظام الأرض وتبقى ويلاتها الثقيلة، حتى وان وقفت حروب السياسيين وسجن ثانية عام 1961م. وفي كل مرة كان يدفع ثمن مواقفه السياسية الجريئة وفي السجن أنتج كتابا شهيراً (مدخل إلى الفلسفة الرياضية) وبعد خروجه رأس محكمة عالمية ضد جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الأميركي في فيتنام ولا يحق لك أن تنظم أي محكمة بهذا الخصوص ألا تنظر إلى الخطر الشيوعي وهو يزحف نحو أوروبا؟ وبقي ينادي بأن الساسة يتناوبون الحضور على حساب شعوب بلدانهم، ليحققوا مكاسب فردية فالحروب تقر بقرارات سياسية تتطلبها مصالح جغرافية وإقليمية، وليس لمصالح تكون لتطور الإنسان، وكان مبرزا في تشريع حقوق الدفاع عن الإنسان، من السخرة، والهيمنة على مصائره، وثرواته، وينظر إلى التعصب بأنه اشد فتكا بالشعوب من القنبلة النووية والجرثومية، كما وأعلن من منابر الثقافة كلها انه من أشد أعداء التعصب الديني من أي جهة جاء، وكان يعتقد أنه لا يوجد دين، إلا وفيه فئة متعصبة جاهلة تفهمه بشكل خاطئ، ومضاد لطبيعته الجوهرية ومبادئه، وبالتالي فالمتعصبون أو المتطرفون بشكل

أعمى يشوهون جوهر الأديان، وتفكيره، وبذلك تضامن معه سلفه احد كبار فلاسفة التنوير العقلاني في أوروبا إبّان تلك الفترة (جون لوك)، موقعاً معه رسالة التسامح؛ ودعا إلى انفتاح الناس من مختلف الأديان والمذاهب على بعضهم البعض، وحذرا من الحروب الدينية أو الطائفية الخطرة جداً، بين الكاثوليك، والبروتستانت، وأيضا بين الرأسماليين والشيوعيين، ومن مواقفه المشرفة دافع عن سياسة السلام في أوروبا، ومحاربة شخص مجرم مثل أدولف هتلر؛ حيث لا تنفع معه أي سياسة سلمية، وعندما زار الإتحاد السوفيتي مع بعض أعضاء حزب العمال البريطاني الاتحاد السوفيتي لرؤية الشيوعية وهي مطبقة على الأرض، وبعد أن حيّا الثورة البلشفية التي حررت الشعب الروسي من نير القياصرة، راح ينتقدها بعنف لأنها تضحي بالحريات الفردية، وهذا ما أزعج زملاءه الاشتراكيين الذين اتهموه بخيانة المبادئ الاشتراكية إضافة إلى نقد المنهج الواحد الذي كان بمنظوره أشبه بنظام دكتاتوري وان تغلف بالاشتراكية، أو تنادي بالديمقراطية ذلك أن حرية الفكر والتعددية السياسية هي الخيار الأمثل لتلاحق الأفكار وإنتاج فكر جديد يُساهم في إحلال السلام بين الشعوب بمختلف الأديان، وكذلك حرية الصحافة، كلها أشياء غير متوافرة إلا في الغرب، وبقي يكره في الغرب النزعة القومية والأنانية الضيقة التي أدت إلى انفجار حربين عالميتين لم يفصل بينهما سوى عشرين سنة؛ الأولى كانت ما بين (1914 ـ 1918)، والثانية كانت ما بين (1939- 1945)، مخلفة عشرات الملايين من الضحايا، وقد مات (برتراند رسل) في بيته، وهو يحتضن كتابا، ومخلفاً وراءه كمّاً كبيراً من الأبحاث التي مازالت جامعة كامبردج الرفيعة تفتخر بها، ليس كونه ابنها البار الذي لم يناصب العداء لأحد؛ ورغم اختلافهم مع منهجه، بل لان طرق تدريسه بقيتْ مثالا حيويا يكشف كم كان رجلها

عاشقاً للعلم وفلسفة الرياضيات، ومازالت ليومنا في الجامعة العريقة تلك، غرفة تسمى باسمه رغم عن كل شائبة لحقت به من جراء مواقفه السياسية غير المهادنة[1].

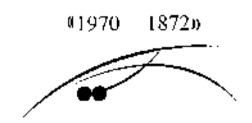
■ ■ ■

(1) الحوار المتمدن – العدد 1782 في 1/ 1/ 2007 محمد الأحمدي

الفيلسوف البريطاني

برتراند رسل

«1970   1872»



من العـــير على أي كاتب أن يلم إلماما تاما بفكر وإنتاج الفيلسوف والمفكر البريطاني الكبير برتراند رسل فقد عاش الرجل قرنا كاملا في فترة حاسمة من فترات التاريخ الإنساني، فبين ميلاده في الثامن عشر من آيار 1872م ووفاته في الثاني من شباط 1970م، ثمانية وتسعون عاما من العمل الجاد المتواصل، أبدع خلالها ما يزيد عن مئة كتاب، إلى جانب مئات المقالات في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والسياسة والدين والأخلاق والجنس.

ويستطرد د. صبحي درويش قائلا:

لقد هالني إنتاجه الغزير، واطلاعه الواسع، وأنا شخصيا لازلت أتمتع بقراءة كتبه حتى اليوم، انه سليل أسرة رسل الشهيرة التي أنجبت قادة سياسيين شغلوا أرفع المناصب السياسية في الدولة البريطانية، فقد كان جده جون رسل رئيسا للوزراء على مذهب الأحرار. وكان أبوه مفكرا حرا. وأثناء إقامتي في لندن أتيحت لي فرصة اكتشاف برتراند رسل مجددا من

خلال سيرته الذاتية وهو يذكرني بكتاب الاعترافات للفيلسوف جان جاك روسو وفي سبيل الحق أو قصة حياتي لداعية اللاعنف غاندي. ويوجز رسل حياته وفلسفته وما عاش من أجله في مقدمة كتابه هذا قائلا:

«لقد تحكمت في حياتي انفعالات ثلاثة، بسيطة بيد أنها متناهية القوة: الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون.ولقد تقاذفتني هذه الانفعالات، كالرياح العاتية في طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب، يصل إلى حافة اليأس ذاتها.

تلمست الحب، أولا، لأنه يجلب النشوة، وهي نشوة وصلت من العمق حدا كان يمكن أن أضحي بما بقي من الحياة من أجل بضع ساعات من هذه السعادة.ثم تلمسته، ثانيا، لأنه يخفف الوحدة، هذه الوحدة الرهيبة التي يشرف فيها الوعي الراجف على حافة عالم يدلف إلى هوة باردة سحيقة لا يسبر لها غور ولا حياة فيها.ثم تلمسته، أخيرا، في الرؤية التي تتمثل للشعراء والقديسين. حينما ينظرون بعين الخيال إلى الفردوس وذلك عن طريق الحب الذي يربط بين قلبين ربطا كاملا فيستشعران تجاوب العشاق الإلهيين.هذا ما سعيت إليه، وبالرغم من انه يبدو أفضل مما تمنحه حياة الإنسان، فقد كان في النهاية هو ما وجدته.

وبنفس الدافع سعيت إلى المعرفة. كنت أرغب في فهم قلوب الناس، ومعرفة السبب الذي يجعل النجوم تضيء. كما حاولت أن أتبين القوة التي قال بها فيثاغورث والتي بمقتضاها يسيطر بها العدد على فيض الكائنات.ولقد حققت شيئا من ذلك، ولكني لم أصل إلى الكثير. وقد أدى ذلك الحب وتلك المعرفة، بقد ما توفر لي منهما، إلى التسامي الذي بلغ بي عنان السماء. ولكن عاطفة الإشفاق كانت تعيدني ثانية إلى الأرض.إن

صرخات الألم تردد أصداؤها في قلبي.إن وجود أطفال يتضورون جوعا وضحايا يتعذبون على أيدي الطغاة، وشيوخ عاجزين قد أصبحوا عبئا مقيتا على أبنائهم .إن وجود عالم من الوحدة والبؤس والألم لما يحيل الحياة الإنسانية كما يجب أن تكون إلى سخرية للساخرين.

إني أتوق إلى تخفيف وطأة الشر، ولكني لا أستطيع، فإنني أعاني منه أنا الآخر.

تلك كانت حياتي. لقد وجدت فيها ما أستحق أن أعيش من أجله ولو منحت الفرصة لأسعدني أن أعيشها مرة أخرى».

كان رسل محبا للسلام، ورقيق الشعور، وناشطا سياسيا بارزا، وإنساني التوجه،فكل فكر لا معنى له ،إن لم يكن في خدمة الإنسان والمجتمع وفي سبيل سعادتهما في آن معا.

اتجه رسل في الفترة الأولى من حياته إلى المنطق والرياضيات وفلسفة العلم، وكان قد تلقى في طفولته تعليما خاصا وراقيا وأتقن الفرنسية والألمانية في صغره. ثم التحق بكلية ترينيتي في جامعة كمبردج واطلع مبكرا على أعمال العالم الايطالي بينو والعالم الألماني فريجة وأصدر في تلك الفترة بالاشتراك مع الفرد نورث وايتهيد كتابه القيم مبادئ الرياضيات وبفضل هذا الكتاب أصبح رسل من كبار فلاسفة القرن العشرين.

وبعد أن عمل فترة في السلك الدبلوماسي في ألمانيا كتب كتابا بعنوان الحزب الديمقراطي الاجتماعي في ألمانيا ثم أصدر كتابا آخر عن الفيلسوف الألماني ليبنتز. ومن مؤلفاته في تلك المرحلة كتابه التصوف والمنطق.وفي وقت مبكر نمت صداقة قوية بينه وبين الفيلسوف النمساوي لود فيج فتجنشتين وقد كان هذا الفيلسوف في البداية تلميذا لبرتراند رسل

ثم أصبح صديقا له.ويذكر رسل في المقدمة التي كتبها لكتاب فتجنشتين دراسة منطقية فلسفية أن فتجنشتين قد أفاده وأثر في تفكيره.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى تألم رسل أشد الألم وجن جنونه، وانفجر واضطرم كاللهب المشتعل ثم اتجه بقوة إلى التفكير في مشكلات الإنسان الاجتماعية والسياسية بعد أن كان غارقا في المنطق والرياضيات وقال آنذاك جملته الشهيرة لقد تخليت عن فيثاغورث .وهكذا راح يتدخل في السياسة و يثير سيلا من النقاش والتعليق مع كبار رجال السياسة في بلده و يمارس الصحافة ويلقي المحاضرات العامة في كل مكان لإنارة الوعي والرأي العام ويصدر أربعة كتب على التوالي الحرب سليلة الخوف، ومبادئ إعادة البناء الاجتماعي، ثم سياسة الوفاق، والعدالة في زمن الحرب.

ثار رسل على المذابح والحروب ودافع بقوة عن السلام في وقت كانت بريطانيا متورطة في تلك الحرب، وهكذا حوكم رسل على ميوله السلمية ونشره مقالا يدعو إلى السلام في جريدة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر عام 1918م وقد كتب كتابه القيم مقدمة إلى الفلسفة الرياضية في السجن عام1919م. ثم اصدر كتابه تحليل العقل في عام 1921م.

تنوعت اهتمامات رسل بعد الحرب العالمية الأولى فكتب في المشاكل الفلسفية العامة مثل مشكلة المعرفة وفي القضايا الاجتماعية والأخلاقية والتربوية.

وكتب المؤرخ ويل ديورانت كان الفيلسوف رسل مسرفا في التفاؤل، ويصب في فلسفته الاجتماعية تصوفا وغموضا وعاطفة ولا يطبق على نظرياته الاقتصادية والسياسية نفس التدقيق وإمعان النظر في الفروض

ونفس الشك في البديهيات التي جعلته يرضى عن الرياضيات والمنطق، وساقه حبه للكمال أكثر من الحياة إلى صور رائعة فاخرة تصلح لان تكون قصائد شعرية للتخفيف من أعباء العالم أكثر من كونها محاولات عملية للاقتراب من مشاكل الحياة. من الممتع أن تفكر في مجتمع يحترم فيه الناس الفن أكثر من الثروة ولكن الفن ليس إلا زهرة تنمو وتترعرع في تربة الثروة والمال. والتجربة الشخصية لرسل نفسه هي أقوى ناقد له. عندما زار روسيا هاله ما رأى وصعق وخيب أمله وزعزع إيمانه وتحطم وثنه الشيوعي، واثر هذه الزيارة التي قام بها لروسيا والتي قابل فيها لينين وتروتسكي وجور كي اصدر عام 1920م كتابه الممارسة والنظرية البلشفية أعلن فيه عدائه للبلشفية وكتب بعد ذلك كتابا آخر بعنوان لماذا لست شيوعيا.

قام بعد زيارته لروسيا بزيارة إلى الصين لإلقاء محاضرات في الفلسفة في جامعة بينبكج وبقى هناك عاما يحاضر فيها. وانفسحت أمام رسل آفاق واسعة ومناظر جديدة في البحر الصيني الزاخر بالناس. وأدرك أن أوربا أسطورة كاذبة أمام الصين كما يلمس القارئ في قوله: «لقد أدركت انه ليس للجنس الأبيض تلك الأهمية التي كنت أعتقد، فلو أبادت أوربا وأمريكا نفسها في الحرب فان هذا لا يعني فناء الجنس البشري أو انتهاء المدنية إذ سيبقى بعد ذلك عدد كبير من الصينيين. والصين أعظم أمة رأيتها إطلاقا من عدة وجوه، فهي ليست أعظمها من الوجهة العددية والثقافية فحسب، بل يبدو لي أنها أعظمها من الوجهة العقلية، لا أعرف مدنية أخرى ما للصين من سعة العقل والواقعية والرغبة في مواجهة الحقائق كما هي، دون محاولة تشويهها في قالب معين».

إن فلسفة برتراند رسل تغيرت وتبدلت بسبب تنقله وأسفاره ورحلاته الكثيرة من بلد لآخر ولكن مع تقدم السن أنضجه الزمن وعلمته

الحياة وأصبح أكثر حكمة واعتدالا وإدراكا لصعوبة الإصلاح الاجتماعي.

بعد عودته من الصين بدأ يعيش من الكتابة في الصحف وإلقاء المحاضرات وتأليف الكتب فقد أصدر كتبا لعامة الناس من مثل ألف باء الذرات وألف باء النسبية وحول التربية ثم اصدر لاحقا مبادئ الرياضيات وتحليل المادة وموجز الفلسفة والتصوف والمادة والزواج والأخلاق، والعلم والدين.

وفضلا عن هذه الكتب التي ورد ذكرها آنفا فان مؤلفات رسل تضم هذه الكتب القيمة: تاريخ الفلسفة الغربية والمعرفة البشرية مجالها وحدودها والعدالة زمن الحرب والعلم والدين وغزو السعادة ودروب إلى الحرية والقوة: تحليل اجتماعي وفلسفة لاينبتز وتحليل العقل والتصوف والمنطق والفكر الحر والدعارة الرسمية ولماذا لست مسيحيا؟ ومعرفتنا بالعالم الخارجي والاستشراف العلمي واحتمالات الحضارة الصناعية والتعليم والنظام الاجتماعي ومبادئ إعادة البناء الاجتماعي ومقالات شكوكية وإطراء الكسل والبلشفيك والغرب وقضية الصين....الخ

ترجمت بعض كتب برتراند رسل إلى العربية اذكر منها تاريخ الفلسفة وحكمة الغرب وقد ترجم هذا الكتاب الأخير الدكتور فؤاد زكريا ويتألف من جزأين الجزء الأول عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي منذ بداياتها الأولى في العصر اليوناني حتى النصف الثاني من القرن العشرين، وحاول فيه إلقاء نظرة شاملة على الفلسفة الغربية منذ طاليس حتى فتجنشتين والجزء الثاني عرض فيه أهم ملامح الفلسفة الحديثة والمعاصرة وسيرة برتراند راسل الذاتية ومبادئ الرياضيات والفلسفة وقضايا الحياة وغيرها.

عاش رسل بعد عام 1944م في انجلترا بصفة مستمرة وأصبح معروفا في بريطانيا بفضل برامجه الإذاعية التي تضمنت السلسلة الأولى من محاضرات ريت السلطة والفرد وفاز بوسام الاستحقاق البريطاني عام1949م. وفي عام1953م ظهرت له مجموعة قصص تحت عنوان الشيطان في الضواحي.

كان برتراند سل ارستقراطيا ومحافظا في نشأته ولكنه تزوج أربع مرات وصدم الناس بآرائه في الحب والزواج وأصبح نجما لامعا في سماء الفلسفة الانجليزية ثم انخرط في قضايا عصره وعمل الكثير من أجل الناس واشتهر بمواقفه الداعية للسلام ومناهضة الحروب ونزع السلاح النووي ومساندة قضايا الحرية والعدالة الاجتماعية وشارك مع الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في إقامة محكمة للضمير العالمي من أجل محاكمة مجرمي الحروب في العالم.وهكذا فرض هذا الفيلسوف الكبير نفسه على ثقافة عصره وحصل على جائزة نوبل للآداب عام1950م.

وهكذا انخرط رسل في قضايا سياسية كثيرة خلال عشرين عاما وخاصة في قضية نزع السلاح النووي وحرب فيتنام، ووجه بقوة انتقادات شديدة ضد سياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

وقبل وفاته في عام 1970م اصدر الفيلسوف برتراند رسل سيرته الذاتية في ثلاثة مجلدات وهي جديرة بالاقتناء والاطلاع عليها. فقد اثبت رسل من خلال هذا الكتاب بأنه أحد كبار فلاسفة القرن العشرين ومن أكثرهم توهجا ووعيا وحكمة.

■ ■ ■

برتراند رسل
الفيلسوف الذي جعل
من الإنسان قضيته فكان الإنسان



إن أسباب التعاسة في الماضي والحاضر. ليس من الصعب التحقق منها بالتجربة والاختبار. فهناك الفقر والأوبئة والمجاعات. وهي تنتج عن عدم كفاية الإنسان في السيطرة على الطبيعة. وهناك الحروب والظلم والتعذيب وهي نتيجة عداء الإنسان لأخيه الإنسان وهناك البؤس المروع المبني على العقيدة الكئيبة المتشائمة التي قادت الإنسان إلى حالة من التنافر الداخلي العميق ،جعلت أي نجاح خارجي، غير ذي فائدة

ويستطرد أكرم الشيخ مهدي مقلد قائلا:

إن هذه الكلمات والمعاني العظيمة، والتي تعبر وبكثافة مريرة عما تنطوي عليه نفس قائل هذه العبارات من زخم الكلمات هي لفيلسوف القرن العشرين، البريطاني الجنسية والإنساني التوجه. (برتراند رسل) الذي ولد في العام 1872. وتوفي في العام 1970. قبل أن يحتفل بعيد ميلاده الثامن والتسعين بثلاثة أشهر. فكانت حياته حافلة ومليئة بالتناقضات والصراعات النفسية والفكرية التي تجاذبت عقل رسل الفيلسوف وعواطف رسل الإنسان. لم يستطع أي كاتب مهما امتلك من أدوات تحليل الشخصية

أن يرسم لنا صورة رسل كما رسمها وعراها رسل نفسه. في العام 1967 بدأ رسل نفسه بإزاحة الستار عن شخصيته الخفية. بكل ما تحتويه من تناقضات. وبكل ما يدور حولها من تساؤلات بطريقة عارية ومتجردة ولكنها واضحة دون لبس لقد قام رسل الكاتب والفيلسوف بتحليل توخى فيه الكمال لشخصية رسل الإنسان في كتاب في ثلاثة أجزاء سماه سيرتي في عام 1895يلتحق رسل بكلية ترنتي جامعة كمبريدج متخصصا في الرياضيات، والفلسفة. فكان أن صدر له مع صديقه الفيلسوف الملهم الفريد نورث هوايتهيد الجزء الأول من كتابهما الشهير (مبادئ الرياضيات) بين عامي 1900،1910 والذي ضمنه رسل ما يعرف بالمنطق الرياضي وهو الذي يربط قوانين المنطق وقوانين الرياضيات أي حاول اكتشاف العلاقة ما بين الاثنين كراهيته الحروب في عام 1918 والحرب الكونية الأولى تطرق الأبواب بجحيمها حكم عليه بالسجن 6 شهور لنشره مقالات يهاجم فيها الحرب ويدعو للسلام و قد كتب لشقيقه فرانك: «إن للجن بعض مزايا الكنيسة الكاثوليكية» يقول رسل: «لقد كانت الأيام الأولى للحرب تحمل لي مفاجآت كثيرة فقد أصبح اعز أصدقائي مثل هوايتهيد متحمساً بذهنه للحرب لقد اكتشف رسل أن الناس يحبون التدمير أكثر مما يحبون البناء نعم خاب أمله حين وجد أن اعتقاده بأن المثقفين يحبون الحقيقة ولكنه وجد أو اكتشف أن الغالبية تفضل الشهرة على الحقيقة فأي زيف هذا. وأي تعاسة انه صعود للنرجسية وهبوط أو انحدار سريع للقيم التي آمن بها. أن شعورا من العطف البائس يغمره نحو الشباب الذين سيقتلون في حرب لم يقرروها .وكذلك أن شعورا من الغضب العنيف المدمر أصبح يملوءه تجاه رجال الحكم في أوربا. وفي عام 1930 زار الاتحاد السوفيتي. وكتب يقول: «إن الماركسية هي نتاج غربي لأنها تعبر عن الشعور الغربي الخالص».

ملامح من أفكاره، ماذا تعني الأبوة والخوف عند (رسل)؟ إن أمل الفرد أن ينجح أطفاله فيما فشل هو في تحقيقه، وهم يمنحونه طريقة هروب بيولوجية من الموت ذلك الهاجس المرير. إنهم يجعلون حياته جزءاً من تيار الحياة الكلي. لا مجرد بحيرة موحلة راكدة. لا تتدفق باستمرار في المستقبل. يقول(رسل) لقد مررت بكل هذه المشاعر وغمرتني السعادة سنوات عدة من الحياة. مابين رحلتين في طريق عودته من أمريكا إلى انجلترا والباخرة تمخر عباب الأطلسي. في السنوات الأولى من ثلاثينات القرن العشرين. انتابته أحاسيس متناقضة في هذه الرحلة عبر عنها في مقال كتبه في صحيفة (هيرست) في ذلك الوقت تحت عنوان عيد ميلا د في البحر وقد ميز في هذا المقال بين مشاعره في رحلة سابقة قبل خمسة وثلاثون عاماً وأحاسيسه في هذه الرحلة.. وفيها يقول: «يقولون أن الزمن يجعل الرجل سهل الانقياد بفعل السن والخبرة وأنا لا اصدق هذا. إن الزمن يجعل الرجل خائفا والحزن يجعل منه شخصا استرضائيا. وعندما يصبح استرضائياً (وهو يعبر عن دبلوماسية التعامل في نظري) فانه يحاول أن يظهر للآخرين ما يجعلهم يعتقدون انه رجل لين وسهل. ومع الخوف ينمو الشعور بالحاجة إلى الحب. إلى الدفء الإنساني الذي به ندفع البرودة القاسية للعالم. وعندما يتكلم رسل عن الخوف لا يعني به مجرد الخوف الشخصي خوف من الموت أو من العجز. إنما يفكر في خوف أكثر تعقيدا انه أي (رسل) يفكر في الخوف الذي يتغلغل في النفس عن طريق تجربة الشرور والآثام الكبرى. التي نراها بل ونلمسها في الحياة. مثل خيانة الأصدقاء. وموت الأحبة ولكن سيد رسل هل فكرت في الخوف الكبير الذي نكتشفه في القسوة التي تكمن في نفوس البشر العاديين. لم تكن جائزة نوبل للأدب التي منحت إلى رسل عام 1950 تعني

شيئا كبيرا أمام الانجازات الرائعة التي قدمها رسل للإنسانية في مجال الأدب والثقافة والفلسفة وحب البشرية. رسل المناضل الصلب للمبادئ والمكافح بعناد ضد الخطر النووي في عام 1955 بدأ رسل حملته الشعواء ضد الأسلحة الذرية، ذات مرة توجه إلى مستمعيه في الإذاعة البريطانية بقوله (إذن أمامنا إذا اخترنا تقدما مستمرا في المعرفة والحكمة والسعادة ولكن هل نختار الموت بديلاً لأننا لا نستطيع أن ننسى الخلافات). كذلك كانت السنوات بين عام 1960–1955سنوات نضال بالنسبة إلى رسل فقد شهد ميدلن الطرف الآغر. في لندن مواقف عدة إلى رسل وهو يهاجم بضراوة النمر الخطر النووي ويحذر مما يعرف (بالشتاء النووي) وهو يهتف تحت الثلوج المتساقطة (إنني التمس منكم كانسان إن تناضلوا ضد الموت والخوف والفزع الذي تمثله الأسلحة الذرية. إن فعلتم ذلك فان الطريق إلى جنة جديدة مفتوح أمامكم حتما .رسل في المرآة كما يرى نفسه وكما يرغب أن يكون، يوجز رسل حياته وفلسفته في نهاية كتابه (السيرة الذاتية) قائلاً: «لقد نذرت نفسي أو الجزء الجدي من حياتي منذ الطفولة لهواجس مختلفة. استمرت لمدة طويلة من الزمن منفصلة. وأخيرا اتخذت لتكون وحدة كاملة. لقد رغبت من ناحية أن أجد إذا كان بالإمكان معرفة كل شيء ومن الناحية الأخرى أن افعل ما بوسعي من اجل خلق عالم اسعد وأجمل».

لقد كانت حياتي مثقلة بالشكوك والهم .لقد كنت ارغب بالحقيقة التي لا يرقى لها الشك. لقد وصف الكتاب رسل بأنه الإنسان الذي حمل .فوق كتفيه تلك الآلام التي قضى حياته في محاولات لتخليص العالم منها. ولكنه كان سعيدا بهذا العبء. الذي ظل يحمله. وخاصة عندما كان يحس بان هناك أذانا تستجيب لندائه كلما دعا إلى السلام ونبذ العنف سأله

يوما شاب صغير السن قل لي مستر رسل ما اكبر عبء يحمله الإنسان في الحياة؟ وراح الفيلسوف يفكر برهة ثم قال: «عندما يشعر الإنسان المكافح انه لا يحمل عبئاً على الإطلاق وأخيرا. إن قرنا من الزمان عاشه برتراند رسل لم يكن نتاجه عبثياً أن المعطيات والأفكار التي جاء بها وآمن وبشر بها رسل تمنحه سجلاً مشرفا في تاريخ الفكر الإنساني. ذلك أن جهده وعطاءه لم يكن لذاته. بقدر ما كان عطاء لكل الناس أو بمعنى آخر كانت الإنسانية هدفه. يكفي رسل نضاله ضد الخوف والحروب والأوبئة والمكر السياسي خلودا ما بعده خلود. ولو أن هذا كذلك لم يكن هدفه لكن القدر في احدى ضرباته العمياء أراد أن يكون كذلك ووفق بذلك أحسن توفيق.

■ ■ ■

وبعد ما قرأناه عن هذا الكاتب الفيلسوف. تعال معي نقرأ بعض ما كتبه هو عن نفسه في كتابه الضخم سيرتي الذاتية والذي نشرته دار المعارف بمصر عام 1970. ونشر التلخيص في جريدة الجزيرة في عددها رقم 10559 تعليق حنان عبد العزيز

اسم الكتاب: سيرتي الذاتية [1].

اسم المؤلف: برتراند رسل.

الطبعة: دار المعارف بمصر سنة 1970م وقد قام بترجمة هذا الكتاب عدد من الأساتذة الدكاترة الفضلاء.

لقد تحكمت في حياة مؤلف الكتاب برتراند رسل انفعالات ثلاثة بسيطة، غير أنها متناهية في القوة والحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون، وتقاذفته هذه الانفعالات كالرياح العاتية في طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب يصل إلى حياة اليأس ذاتها.

بهذه العبارات المؤثرة بدأ المؤلف كتابه، واستهل بها خطابه، ولعل هذه المقدمة تبين الهدف السامي الذي عاش من أجله رسل، ونلمس في هذه العبارات السابقة صدق اللهجة، وحرارة العاطفة، وما أقرأ فيه هو ترجمة الكتاب لا أصل هذا الكتاب حيث يظهر من الاستهلال الجهد الذي بذله المترجمون في محاولة تقريب الترجمة قرباً تاماً من حديث المؤلف، لكن هذه الترجمة يغلب عليها أحياناً جانب الأدب والفن البلاغي، وأحياناً يغلب عليها جانب الترجمة الحرفية ولا أدري ما السبب؟ هل هو عائد إلى تقسيم العمل في هذا الكتاب بين الأساتذة المترجمين الفضلاء؟ أم هو عائد إلى أسلوب المؤلف نفسه والذي قد يتراوح حيناً بين استخدام

---

(1) صحيفة الجزيرة لعدد 10559 سيرتي الذاتية تأليف برتراند رسل. تعليق حنان بنت عبد العزيز

العبارات الأدبية أو تركها في بعض مواضع الكتاب وهو مقسم إلى عدة فصول جاء الفصل الأول معنوناً له بالعنوان التالي «مرحلة الطفولة» ويحكي فيه المؤلف عن ذكرياته في الطور الأول من أطوار حياته، ويصف والديه بقوله: كان أبي متحرر الفكر وقد كتب مؤلفاً ضخماً نشر بعد وفاته أسماه «تحليل العقيدة الدينية»، كما كان يملك مكتبة عظيمة، ... لقد كانت والدتي كما عرفتها من خلال مذكراتها وخطاباتها قوية البنية، تفيض حيوية، لماحة، جادة قادرة على الابتكار لا يتطرق إليها الخوف، ويظهر من النص السابق أن كلاً من والديه كانا مثقفين، فوالده اللورد أمبرلي توفي منذ زمن وجيز، ووالدته وشقيقته توفيتا على إثر إصابتهما بالدفتيريا بعد عام ونصف من وفاته، وقام بشؤون تربيته من بعد والديه جداه، وتعتبر شخصية جدته الاسكتلندية الأصل أهم شخصية في حياته خلال هذه المرحلة، وحرصت على تنمية مواهبه فيقول: وقد اعتادت جدتي أن تقرأ لي بصوت عال وبهذه الطريقة استطعت أن ألم بالأدب الإنجليزي إلماماً كبيراً، فقرأت معها شكسبير وملتون ودرايدن وقصيدة الواجب ل(كوبر)، وقصر الخمول لـ(طومسون)، وفي سن الحادية عشرة بدأ في دراسة هندسة إقليدس، وهذا من أهم أحداث حياته، وكان يكره اللاتينية واليونانية ويقول: «كنت أحب الرياضيات أكثر من أي شيء آخر وبعدها التاريخ»، وفي هذا الفصل عرض لكل شيء حدث له في طفولته وكانت تعيه ذاكرته كما تعرض للمؤثرات البيئية الخارجية التي أثرت في هذه الطفولة، ويلي هذا الفصل الثاني وهو مرحلة المراهقة وفي هذه المرحلة طرأ عليه تغيير وهو استخدامه اللغة الدارجة وتظاهره بانعدام الشعور وتشبه بالرجال عامة وكان من عادة أهله أن يفرضوا عليه محرمات كثيرة فتولدت عنده عادة الكتمان والمخادعة ويقول:«التي لازمتني حتى سن الحادية والعشرين وأصبحت بعد ذلك أصدر عن طبع راسخ حين

أحتفظ لنفسي بما أريد أن أفعله لا أفضي به لأحد، وفي هذه المرحلة من حياته كان كثير الاهتمام بالسياسة والاقتصاد، فقرأ كتاب «الاقتصاد السياسي»، وقرأ الفيلسوف هربرت سبنسر كما قرأ أيضاً مؤلفات الكاتب هنري جوج صاحب كتاب «التقدم والفقر»، وفي فصل الكتاب الثالث كامبردج أشار إلى أن والده كان قد تلقى تعليمه في كامبردج ولكن أخاه تعلم في أكسفورد، أما هو فقد ألتحق بكامبردج لاهتمامه بالرياضيات، وكانت بدايته في ديسمبر 1889م حينما دخل امتحان القبول للمنح العلمية ويشير إلى أن أعضاء هيئة التدريس في كامبردج لم يسهموا في متعته: «فقد كان العميد أشبه بشخصية خرجت لتوها من كتاب «المتعجرفين»، لثاكري وكان عادة يبدأ ملاحظاته بقوله: «منذ ثلاثين سنة تماماً»، أو بقوله: «هل تذكرون بالصدفة ما كان السيد بت يفعله من مائة سنة تماماً؟» ثم يمضي في سرد حكاية تاريخية تبعث على الضجر ليدلك على عظمة رجال الدولة الذين ورد ذكرهم في التاريخ».

وفي فصل الكتاب الرابع «الخطوبة» يتحدث المؤلف عن عائلة بيرسال سميث الأمريكية وهي تتكون من أب وأم متقدمين في السن وابنتهما ومعها زوجها، وابنة أصغر تطلب العلم في كلية برين مور للبنات في أمريكا، وكان لهذين الوالدين ابن وهو طالب في كلية باليول بجامعة أكسفورد، وقد حظيت هذه الفتاة على إعجابه فيصفها بقوله: كانت أكثر اتزاناً من شقيقها، وأكثر شعوراً بالمسؤولية من شقيقتها.. وتساءلت ما إذا كانت ستظل دون زواج حتى أكبر، فقد كانت تكبرني بخمسة أعوام، وبدا لي هذا الخاطر بعيد الاحتمال ولكني ازددت تصميماً على أنه لو تحقق هذا الاحتمال لطلبت أن أتزوجها، ثم يتحدث عن هذا الزواج في فصل كتابه الخامس ويسميه «الزواج الأول»، ويصف هذا الزواج الأول حين تم بأنه قضى فيه فترة من السعادة الغامرة والعمل المثمر في حياته،

وفي أثناء السنة الأولى من زواجه قرأ قراءات مستفيضة في الرياضيات والفلسفة على السواء، وحقق قدراً كبيراً من الأصالة والابتكار، ووضع أساساً لعمله في المستقبل، وفي وقت الفراغ قرأ قراءات جدية وخاصة في علم التاريخ كتاريخ مدينة روما لمؤلفه جريجورفيوس، وتعتبر هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته على الإطلاق.

وفي الفصل السادس الذي أسماه «أصول الرياضيات» تحدث عن المؤتمر الدولي للفلسفة الذي انعقد في باريس وقد كان هذا المؤتمر نقطة تحول في حياته الثقافية لأنه قابل فيه بيانو عالم الرياضيات الكبير ولم يكن يعرفه من قبل إلا بالاسم فقط ويصفه بقوله: فلما حضرت إلى المؤتمر، وتتبعت مناقشاته لاحظت أنها أكثر ميلاً للدقة من مناقشات أي إنسان آخر، وأنه إذا دخل في مناقشة مع الغير كانت حجته هي الأقوى، وفي عام 1906م اكتشف «نظرية الأنماط» ولم يبق عليه في تحرير كتابه الرياضي إلا القليل وبين الفصول الواردة في الكتاب كان المؤلف يضيف كتاباته إلى جمهور أصدقائه وردودهم عليه، وقد شكلت الرسائل حجماً كبيراً من الكتاب والمؤلف كان عالماً متخصصاً في الرياضيات ولا بأس هنا أن ننقل رأيه في التخصص حيث يقول: إن التخصص أدعى للكفاءة والكفاءة نوع من الإيثار.

ومهما بلغ من ضيق أفق المتخصص فلابد أن نتسامح معه إذا أتقن عمله، إنني أؤمن بهذا إيماناً قوياً لأن إغراء التشويق والإثارة بدلاً من الفعالية في مجال التخصص إغراء يؤدي إلى المخاطر ونظريته في الكتابة تتلخص في قوله: الكتابة هي المخرج من المشاعر المستبدة بالنفس التي يمكن مع ذلك الإفلات من قبضتها والسيطرة عليها لابد من التمكن من شيئين: سمو المشاعر والسيطرة على هذه المشاعر وكل شيء آخر بمحض الإرادة، وتشير هذه الرسائل التي أوردها المؤلف عقب فصل الكتاب

السادس إلى المواد التي عني بتدريسها كمادة المنطق وأصول الرياضيات وكان يعطي طلابه أربعاً وعشرين محاضرة خلال الفصل الدراسي الواحد، مدرساً هاتين المادتين السابقتين.

وفي الفصل السابع من الكتاب وهو الأخير يصور المؤلف شعوره بعد تأليف كتابه «أصول الرياضيات»، وشغله نفسه بأمور السياسة فيقول: عندما فرغت من كتابي «أصول الرياضيات»، شعرت بشيء من الحيرة وكان ذلك الإحساس على الرغم من ذلك لذيذاً، يشبه إحساس من أفرج عنه من السجن، ولما كنت في ذلك الوقت شديد الاهتمام بالصراع بين الأحرار وبين اللوردات حول الميزانية وحول القرار الذي اتخذه البرلمان فقد شعرت بميل نحو الاشتغال بالسياسة، وأخيراً ختم الكتاب بمجموعة من الرسائل التي كانت بين المؤلف ووالدته، ومن خلال قراءتي في الكتاب يتجلى الوصف الدقيق في تتبع المؤلف لأحداث حياته وتقييدها بالتواريخ إن أمكنه ذلك، كسرده لرسالة أمه التي وصف فيها ميلاده ثم وصفه للبيت الذي استقر فيه جداه من قبل والده، وذاكرة المؤلف قوية جداً فقد وصف أحداث حياته حينما كان يرفل في الخامسة من عمره.

ورغم المكانة العلمية التي وصل إليها المؤلف إلا أنه كان يتصف بالخجل الشديد وقد حاول بكل ما أعطي من قوة أن يتخلص منهما في تقدم شبابه وأيام عمره الأولى.

■ ■ ■

من يبحث عن الموهوبين؟[1]



الفرد من الناس هو أساس الأسرة، والأسر بمجموعها تكوِّن المجتمع، وعلى هذا الأساس فالمجتمع عبارة عن أفراد.. وهؤلاء الأفراد يختلفون في قدراتهم العقلية وفي الظروف البيئية والمعاشية.. والمجتمع السعودي مجتمع مثل سائر المجتمعات الأخرى، وقد يُوجد من بين أفراد المجتمع السعودي من يملكون قدرات عقلية وإبداعية في مجالات متنوعة، علمية أو أدبية أو فنية، لكن لظروف معينة قد تحيط بمثل هؤلاء الأفراد لا تظهر مثل هذه المواهب على السطح، وهنا نتساءل، كيف يُمكن أن يستفيد المجتمع من هؤلاء؟ وما هي الوسيلة إلى الوصول إليهم؟.

لا شك أن هناك بعض الهيئات التي تعتني بالموهوبين لكنها على نطاق ضيق وفي أماكن محددة.

يقول الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل (1872م - 1960م) في كتابه السلطة والفرد في فصل (المواهب الفردية): كلما تقدم المجتمع في نموه ظهرت فروق بين نشاط أفراده، وكلما كثرت تلك الفروق تكوَّنت للمجتمع حاجات جديدة للانتفاع بها وتوجيهها.. ويتوقف مدى استفادة المجتمع من مواهب أفراده على مدى التقدم وبالعكس، فالمجتمع السعودي في الوقت

(1) أ.د عبد الرحمن بن سعود بن ناصر الهواوي

الراهن يتقدم بسرعة، لكن استفادته من مواهب أفراده محصورة في نطاق ضيق، ويضيف برتراند رسل قائلاً:... غير أن المجتمع إذا فقد سيطرته على هؤلاء الأفراد قد يضطرهم إلى الانهماك في أمور ضارة بكيانه ؟

ويقول هذا الفيلسوف: «... ولقد كان صعباً – في الماضي – على المجتمعات أن تكشف الموهوبين، إذ إن الموهبة ليس سهلا اكتشافها.. لأن.. الفروق تظهر بين الأفراد بطرق شتى.. ويقول برتراند رسل أيضاً: إنه يمكن أن يُقال باستحالة وجود أي إنتاج كبير في العالم الحديث، وربما في المستقبل القريب إذا كان الاعتماد منصباً على نشاط الفرد وحده دون مؤازرة المؤسسات الاجتماعية، لأن الرجل - الموهوب - الذي يعمل دون مساعدة منظمة ما.. لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة على الشكل الذي يستطيع أن يعمله عندما تؤازره بعض المؤسسات الاجتماعية في مجتمعنا كل شيء يُطلب من الدولة، أما مساهمات الشركات والبنوك وغيرها في هذا المجال فهي نادرة أو شبه معدومة

ويضيف رسل قائلاً: إن هذا الشيء ينطبق على رجال العلم كما ينطبق على غيرهم من الناس.. لقد قام رجال العلم في الماضي بعملهم، وهم معتمدون على أنفسهم فقط.

غير أن زملاءهم في الوقت الحاضر يحتاجون إلى أجهزة ووسائل لا يستطيعون القيام بها بأنفسهم، لكنهم يحصلون عليها بسهولة عن طريق كسب ود الحكومة، أو عن طريق إقناع رجال المال. الدولة عندنا تقوم بتزويد الجامعات والمؤسسات العلمية الأخرى باحتياجاتها من الأجهزة والمواد.. أما رجال المال عندنا فهم بلا دور يُذكر ويصل رسل إلى نتيجة مفادها: أنه ينبغي إذن أن تُوجد وسائل عن طريقها يستطيع الفرد أن يتمتع بنشاطه العقلي والفني، وأن يُعبِّر عنهما لا في الأمور التافهة، لكن في القضايا الهامة في المجتمع الذي يعيش فيه، هذا والله من وراء القصد.

مغامرات مثيرة
تحت الطلب

قصة المؤلف



في منتصف ديسمبر سنة 1950 منحت جائزة نوبل في الأدب للمفكر الإنجليزي المعروف «برتراند رسل» فلما سمع بذلك أحد أدباء الإنجليز المتخرجين من كمبردج تساءل مازحا: «أو منحوه جائزة نوبل في الأدب وحده؟ كان ينبغي أن يمنحوه جائزة في الشذوذ أيضا».

والواقع أنه يستحقها فإن هذا الكهل ذا الجسم الهش والوجه الشبيه بوجه القديس الساخر. يقف بعد برناردشو كأعظم شخصية معاصرة تستفز بآرائها الجماهير الناطقة بالإنجليزية وتتحداها وتثيرها.

وبرتراند رسل مفكر كان طيلة حياته -وما يزال- متعدد الجوانب له في ذهن كل فئة من قرائه صورة مختلفة وصفة بارزة، بحيث يصعب تقويم مواهبه المتنوعة الفذة وتغليب إحداها: فهو بالنسبة للمشتغلين بالفلسفة فيلسوف، وبالنسبة للرياضيين عالم في الرياضيات وبالنسبة للمفكرين الثائرين مفكر ثائر .. وهلم جرا.

وقد اتهم رسل - وضبط متلبسا عدة مرات - بكثير من التناقض مع نفسه. وحاق في أجواء للمعرفة أبعد وأعمق غورا مما يستطيع أن يسايره فيها القارئ العادي. كما أثار اهتمام القراء واحتل اسمه الصفحات الأولى من الصحف في كثير من المناسبات على صورة تكاد تكون وقفا

على كواكب هوليود. من أمثلة ذلك أنه تنبأ فى سنة 1937 بأنه حين تنشب الحرب العالمية الثانية سوف يكون قد هرب إلى بلد محايد. وقد حدث فعلا أن الحرب نشبت سنة 1939 وهو فى كاليفورنيا بأمريكا. يدرس الفلسفة فى جامعتها. فدعى على الأثر كى ينضم إلى أساتذة كلية نيويورك. فقبل مرحبا. لكنه لم يكد يتسلم مهام منصبه الجديد حتى تلقت الصحف بيانان من الأسقف «مانتج» أسقف الكنيسة البروتستانتية يهاجم فيه تعيين رسل فى منصبه الجديد بقوله: «أن مستر رسل داعية معروف بعدائه للدين والأخلاق ويدافع عن الزنا وتبريره له».

وكانت تلك بداية «قضية رسل» المشهورة التى انقسم بإزائها الرأى العام الأمريكى المثقف فى سنة 1940 إلى قسمين: قسم يناصر الرجل، وقسم يناصبه العداء - تماما مثلما انقسم الفرنسيون بإزاء «دريفوس» أيام قضيته المعروفة - فكنت ترى رجال الدين والكنيسة يهاجمون بعضهم البعض والمعلقين فى الصحف يتبادلون قوارض التهم حتى ليوشكوا أن يتضاربوا بمقالاتهم.

ولم يمض وقت طويل حتى رفع الأمر إلى القضاء كى يصدر حكما يجيب على هذا السؤال الخطير «هل يصلح برتراند رسل لأن يعلم الفلسفة فى كلية ينفق عليها دافعوا الضرائب من سكان نيويورك؟»

ووقف أحد المحامين يهاجم رسل بقوله: «إن كتبه داعرة، فاسقة، شهوانية، شبقة، جنونية، فاجرة، ملحدة، وقحة، كاذبة، مجردة من كل أثر لمبادئ الأخلاق»

ورغم ذلك، فإن هذا المتهم ذاته هو الذى تلقى فى سنة 1950 وسام الاستحقاق من ملك إنجلترا. وفاز فى شهر ديسمبر من نفس العام بجائزة نوبل العالمية فى الأدب.

الكتاب الذى أحدث أكبر ضجة عالمية

وقد بنيت كل التهم التى وجهت إلى رسل على كتابه الذى ألفه سنة 1929 بعنوان «الزواج والأخلاق» وقد نادى فيه بضرورة التسامح فى خطايا الأزواج غير الموفقين فى حياتهم الزوجية. والغريب أن الكتاب استقبل عند صدوره استقبالا حسنا من القراء. بل ومن الكاثوليك أنفسهم. فلما أثير أمره فى القضية بعد أحد عشر عاما من ذلك التاريخ تسبب فى حرمان مؤلفه من منصبه الجامعى كأستاذ للفلسفة فى جامعة نيويورك.

لكن الفيلسوف المطرود من الجامعة بقى مستوطنا فى الولايات المتحدة حتى نهاية الحرب، ولم يعد لوطنه إلا فى سنة 1945 حين انتخب زميلا فى كلية ترينتى التابعة لجامعة كمبردج الإنجليزية المشهورة. وإذا المفكر الذى أطلق عليه فى يوم من الأيام لقب «بولشى» - اختصارا لـ بلشفى - يضع قدمه فى بلاده ليجد صحيفة «الديلى وركر» العمالية اليسارية تنهال عليه بحملاتها الكاريكاتورية التى تصور فى صورة «تاجر الحرب المتوحش» وما ذلك إلا لأنه كان قد أذاع حديثا فى الإذاعة البريطانية قال فيه: «لم يحدث قط أن سيطرت دولة كبيرة على رعاياها سيطرة كاملة كما

يحدث في روسيا السوفيتية. ولكن كما حدث فى القرن الخامس، لابد أن ينهار هذا النظام من أساسه بكل ما يترتب على انهياره من فوضى وفقر قبل أن يستطيع البشر أن يستردوا تلك الدرجة من الحرية الشخصية التى بدونها تفقد الحياة طعمها ولذتها».

لكن رسل – بطريقته المعهودة – لم يكتف بمهاجمته الشيوعية الروسية بل قرن بها الاشتراكية البريطانية الحالية. فتنبأ بانهيار الاثنين. حتى ليعد اليوم عدوا للسوفييت وعدوا للاشتراكيين فى وقت واحد وهو يمتدح الأرستقراطية بقوله: «أنها منحت الناس الفراغ وبغير الفراغ لا يمكن للمدنية أن ترتقي. فالأرستقراطية تعطى الإنسان سعة فى أفق التفكير».

وكان ابرز ما تميز به رسل بعد عودته إلى مسرح الحياة الإنجليزية أنه لم يعد داعية السلام الذى كان أيام الحرب العالمية الأولى. ومن أقواله المأثورة تأييدا لاتجاهه الجديد: «لو كنت شابا لحاربت هتلر».

أما اليوم فيرفع رسل عقيرته بالتحذير من الخطر الروسى الذى يهدد الولايات المتحدة بالتطويق فى الشرق الأقصى. وهو يدعو إلى استعمال القنبلة الذرية إذا غزا الشيوعيون سيام أو بورما أو غرب برلين. فما أبعد هذه الصيحة عن الميدان الذى كان يخصه رسل بصيحاته في الأيام الخوالى حين كان يركز اهتمامه وإطلاعه الواسع فى «منطق العلوم الرياضية» مثلا. ويطبق مبادئه بصدد الحرية الجنسية فى إحدى مدارس مقاطعة هامبشاير حيث كان يلقى دروسه.

فهل هناك خيط واحد يمكن تتبعه يربط بين كل هذه الاتجاهات المتنافرة والميادين المتباعدة للبحث والدراسة والدعوة الحماسية المخلصة ؟.

يعتقد برتراند رسل أن هناك مثل هذا الخيط فهو يقول أنه قد كرس حياته كلها لتعريف السعادة وتحديدها، وأن التذكرة الطبية التى يصفها لكل إنسان أو الأهداف التى يرى وجوب تحقيقها للبشر جميعا هى باختصار: الصحة، والأمان الاقتصادى، والعمل الذى يرضى هواية الإنسان ويتفق مع ميوله والعلاقات الشخصية التى ترضى رغبات الإنسان وتتفق مع ميوله وأخيرا اتساع نطاق الأمور التى يوليها المرء اهتمامه ويحفل بها.

ولعل من أغرب مظاهر تناقض برتراند رسل مع نفسه: مظهره فإن هذا الرجل الثائر المثير للقلاقل المنادى بالحرية الجنسية المحرض على استخدام القنبلة الذرية فى الحروب. هو فى مظهره شيخ مسن فى الحادية والثمانين من عمره. متورد الوجه، تحيط بمحياه هالة «قدسية» من الشعر الأبيض. وابتسامة تبدو للبعض عذبة صافية، فى حين يصفها البعض بأنها ابتسامة «الراهب الخبيث».

ومن مظاهر تناقضه أيضا أن أعراض ثقافته العالية لا تبدو للعيان ولا يباهى بها. قابله أحد الأدباء مرة على ظهر الباخرة التى تعبر المحيط من أمريكا إلى انجلترا. وكان يحمل تحت إبطه كتبا ثلاثة. هل كانت كتبا فى الفلسفة؟ أو الرياضة؟ أو علوم ما وراء الطبيعة؟ كلا.. بل كانت ثلاث روايات أمريكية بوليسية. وابتدر الفيلسوف محدثه قائلا: «إنى أستطيع أستيعاب اثنتين منها فى الليلة الواحدة» ولعل هذه الظاهرة هى التى يعنيها رسل فى وصفته الطبية الفلسفية للسعادة بأنها اتساع نطاق الأمور التى يوليها الإنسان اهتمامه. وهل هناك أبعد من المدى بين الاهتمام بالفلسفة والاهتمام بحل الألغاز البوليسية؟

ومن أطرف نزوات رسل الشاذة أنه خصص فصلا من فصول

كتاب له عنوانه «مقالات وبحوث غير مألوفة» أو غير مستساغة لكتابة رثاء لنفسه، قدم له بهذه العبارة: «هذا المقال سوف ينشر – أو سوف لا ينشر – في جريدة التايمس يوم أول يونيو سنة 1962 لمناسبة موتى المفجع المتأخر» وفيما يلى طرف من ذلك الرثاء الطريف الحافل بالسخرية اللاذعة:

«يموت ايرل رسل الثالث – أو برتراند رسل كما كان يؤثر أن يسمى نفسه – في سن التسعين انقطعت حلقة تربط حاضرنا بالماضى البعيد – فقد كان جده لورد جون رسل رئيس الوزارة البريطانية الذى زار نابليون فى منفاه بجزيرة ألبا، خلال حكم الملكة فيكتوريا – وقد برز الفقيد فى شبابه في أبحاثه ونظرياته التى تعالج منطق الرياضيات لكن مسلكه الشاذ خلال الحرب العالمية الأولى أظهر افتقاره إلى الاتزان فى أحكامه وتقديره للأمور، الأمر الذى شاب كتاباته الأخيرة على صورة متزايدة. ولعل مرد ذلك إلى أنه لم يحظ بمزايا الدراسة فى مدرسة عامة، بل تلقى علومه فى البيت على معلمين خصوصيين حتى سن الثامنة عشر. حين التحق بجامعة كمبردج. ثم تخرج منها سنة 1893 وخلال الخمسة عشر عاما التالية ألف الكتب التى أكسبته شهرته فى الأوساط الثقافية فى العالم أجمع، ومن بينها كتاب «مبادئ الرياضيات» الذى وضعه بالاشتراك مع زميله الدكتور هوايتهيد والذى ظفر عند صدوره باهتمام المثقفين وتقديرهم. ولا شك أن الكتاب كان يدين بتفوقه وروعته إلى موهبة الدكتور هوايتهيد، وهو الذى امتاز ببعد النظر والعمق الروحى اللذين كان رسل مفتقرا إليهما.

وهذا الافتقار إلى العمق الروحى تجلى على أسوأ صورة خلال الحرب العالمية الأولى حين نادى رسل بوجوب انصراف هم الساسة إلى تقصير أمد الحرب – باعتبارها شرا مستطيرا – بأية وسيلة وعلى أية صورة

ولو بالتزام بريطانيا الحياد وانتصار ألمانيا. وقد أدت به مناداته بهذه الرسالة إلى فقده منصبه كمدرس فى جامعة كمبردج عن استحقاق ثم إلى الزج به فى السجن حيث قضى بين قضبانه بضعة أشهر من عام 1918.

وفى سنة 1920 قام بزيارة قصيرة لروسيا التى لم يعجبه نظام الحكم فيها. ثم بزيارة أطول للصين، حيث استمتع بالتأمل العقلى فى مهد الحضارة القديمة الذى لا تزال تفوح فيه اليوم روائح القرن الثامن عشر. وفى السنوات التالية بعثر نشاطه على الكتابة فى عدة موضوعات: تارة فى الاشتراكية والإصلاح الاجتماعى، وتارة فى الدعوة إلى التخفيف من صرامة قانون الأخلاق فيما يتصل بالزواج. وبين الحين والآخر كان يعود إلى الكتابة فى موضوعات خارجية أعم. أما كتاباته التاريخية فهى - بأسلوبها ودعاباتها - تخفى عن القارئ العابر سطحيتها العتيقة التى لازمت الكاتب إلى النهاية.

وفى الحرب العالمية الثانية لم يضطلع الفقيد بأى دور إيجابى، بل اكتفى بالفرار إلى دولة محايدة قبيل نشوبها مباشرة. وكان رأيه الخاص الذى أدلى به فى مناقشاته غير العلنية أن نزلاء مستشفى المجاذيب من القتلة قد استخدموا فى قتل بعضهم البعض خير استخدام، وأن العقلاء ينبغى أن يتجنبوا طريق هؤلاء أثناء انهماكهم فى مهمتهم. ومن حسن الحظ أن هذه النظرية - المقتبسة من آراء بنتام - قد أمست نادرة الشيوع فى هذا العصر الذى يجعل للبطولة فى ذاتها قيمة مستقلة عن فائدتها أو نفعها. حقيقة أن الكثير مما كان يعرف فى الماضى بـ«العالم المتمدين» قد صار أطلالا ولكن ما من مفكر صائب الرأى يستطيع أن يعترف بأن الذين ماتوا دفاعا عن الحق فى الكفاح الهائل قد ماتوا عبثا.

أما حياته - بكل ما انطوت عليه من عناد وصلابة - ففيها عنصر من الخطأ فى تسلسل الحوادث يذكر بالذى كان للثوار الأرستقراطيين فى أوائل القرن التاسع عشر وأما مبادئه فكانت عجيبة. لكنها برغم ذلك سيطرت على تصرفاته. وفى حياته الخاصة لم يظهر شيئا من الفظاظة والمرارة التى شابت كتاباته. بل كان محدثا لبقا. أصيل الرأى وغير مجرد من العطف الإنسانى.

وكان له أصدقاء كثيرون لكنه عاش بعد وفاة أكثرهم بل جميعهم تقريبا. وبالنسبة للقلائل الباقين بدا فى أرذل عمره رفيقا بهيجا مسليا، الأمر الذى يرجع أكثره إلى صحته المتينة التى ترجع بدورها إلى أنه فى سنواته الأخيرة عاش فى عزلة تامة عن السياسة»

ذلك هو رثاء برتراند رسل لنفسه وتسجيله لسيرة حياته. أفلا يوافقه القراء على الكثير من آرائه الجريئة؟.

هذه القصة أحدث كتاب وأول قصة يكتبها رسل:

والآن .. بقى أن تعرف شيئا عن الكتاب بعد أن عرفت شيئا عن الكاتب. وهذا الكتاب هو أحد ما أصدر برتراند رسل من مؤلفات .وقد يدهشك أن تعلم أنه أول قصة يكتبها برتراند رسل فى حياته. فإن جميع كتبه السابقة التى بلغت خمسة وعشرين كتابا كانت تدخل فى باب الفلسفة أو الاجتماع أو السياسة العالمية أو علم النفس ... إلخ.

أما باب القصة فلم يطرقه رسل قبل هذه المرة. وهو يعلل نزوله إلى ميدانه - فى مقدمة الكتاب - بهذه العبارات: «أن محاولة طرق باب جديد من أبواب الكتابة فى سن الثمانين قد تكون أمرا غير مألوف - وأن تكن له سوابق - ومن ثم قد يتعين على إيضاحه وتبريره تخفيفا من حدة دهشة القارئ

– والواقع أن دهشة القارئ فى هذا الصدد قد لا تفوق دهشتى أنا نفسى – والذى حدث أننى لسبب غير مفهوم وجدت نفسى راغبا فى كتابة هذه القصة – رغم أننى لم أفكر قط من قبل فى أن أفعل شيئا كهذا. ولما كنت قد وجدت متعة خاصة فى كتابتها فقد يوجد قراء يجدون نفس المتعة فى قراءتها.

وأنا لم أقصد بهذه القصة أن تكون أدبا واقعيا أو موضوعا أخلاقيا له هدف بل أن أسفى يكون بالغا إذا فهم البعض أننى قصدت بها إبراز عظة خلقية معينة أو وضع دستور خاص للمجتمع. وإنما كتبتها بكل بساطة كقصة فإذا وجدها القارئ مسلية أو ممتعة كمادة للقراءة تكون قد أدت غرضها»

ذلك هو تقديم المؤلف الساخر للقصة. ومع ذلك فقد جاءت القصة فى رأيى منطوية على أكثر من هدف وأكثر من عظة. سواء قصد إليهما المؤلف أم لم يقصد.

فتعال معى نقرأ القصة التى ركز فيها برتراند رسل كل فلسفة وسخرية وتجارب ثمانين عاما. قضاها هو على الأرض.

■ ■ ■

الفصل الأول



عند عودتى من عملى ذات مساء إلى حيث أقطن فى ضاحية مورتليك لمحت لافتة نحاسية جديدة على باب فيلا اعتدت أن أمر بها كل يوم. ولدهشتى قرأت على اللافتة النحاسية هذه العبارة الغريبة :

مغامرات مثيرة تحت الطلب

اتصلوا بالدكتور «مردوخ ملاكو»

وأثار الإعلان فضولى فلما بلغت البيت كتبت إلى الطبيب المذكور خطابا اسأله مزيدا من الإيضاح. فتلقيت منه الرد التالى:

سيدى .. لم يدهشنى طلبك لإيضاح ما عنيته بلافتتى النحاسية. وإليك الإيضاح المطلوب: لعلك لاحظت أخيرا شيوع النزعة إلى الشكوى من الضجر الذى يبعثه روتين الحياة المألوفة فى ضواحى مدينتنا العظيمة. وقد عبر بعضهم عن ذلك بالقول أن الشاكين من هذا الضجر فى حاجة إلى مغامرة ما، بل شئ من المخاطرة التى تعنيهم على احتماله. وأملا فى سد هذه الحاجة اتخذت لنفسى هذه المهنة الجديدة معتقدا أن فى وسعى تزويد عملائى بمغامرات ومخاطرات جديدة مثيرة تقلب نظام حياتهم رأسا على عقب.

«فإذا أردت مزيدا من الإيضاح ففى استطاعتى تقديمه لك إذا حضرت لزيارتى فى الموعد الذى نتفق عليه. وأتعابى عشرة جنيهات فى الساعة»

وأدخل هذا الرد فى روعى أن الدكتور سلاكو رجل إنسانى من نوع جديد لكنى ترددت فيما إذا كان الأمر يستحق التضحية بالجنيهات العشرة، أم أن الأوفق إنفاق هذا المبلغ فى باب آخر من أبواب اللهو وتبديد الضجر.

وقبل أن يستقر رأيى على قرار فى هذا الشأن كنت مارا أمام دار الطبيب مساء أحد أيام الاثنين حين لمحت جارى مستر «ابر كرومبى» خارجا من باب الدار شاحب الوجه، مشتت الفكر، زائغ العينين، مضطرب الخطوات، يتحسس بيده مزلاج الباب ثم يمرق إلى الطريق كما لو كان قد ضل سبيله فى جهة غريبة عليه. فلم أملك أن هتفت به: «بحق السماء ماذا أصابك أيها الرجل؟». فأجابنى مستر ابركرومبى وهو يحاول - محاولة يرثى لها - أن يتظاهر بالهدوء: «أوه، لا شئ على وجه التحديد. كنا نتحدث عن الطقس»

فقلت له ملحا: «لا تحاول أن تخدعنى. فلابد أن شيئا أسوأ من الطقس قد طبع هذا الرعب على وجهك». فأجاب فى عصبية: «أى رعب؟ هراء. قد يكون ذلك من تأثير إفراطنا فى الشراب».

ولما كان مسلكه قد أوحى إلى برغبته فى التخلص من أسئلتى فقد تركته يمضى إلى حال سبيله. وفى الليلة التالية كنت عائدا إلى بيتى فى الساعة عينها فرأيت جارا آخر لى - هو مستر بوشامب - خارجا من دار الطبيب فى نفس الحالة من الرعب والدوار لكنى لم أكد أهم بالاقتراب

منه حتى أشاح عنى مبتعدا. وفى الليلة التى تلتها شاهدت الملامح بعينها على سحنة شخص ثالث يدعى مستر كارترايت. وفى مساء الخميس تكرر المنظر ذاته مع مسز اليركر – وهى سيدة متزوجة فى الأربعين كنت على صداقة بها – بل أنها لم تكد تخرج من دار الدكتور ملاكو حتى سقطت على الرصيف مغشيا عليها. وأعنتها على استعادة وعيها فلما تمالكت نفسها بدرت منها كلمة واحدة همست بها وهى ترتجف وكانت هذه الكلمة: «مستحيل!». وعبثا حاولت أن استخلص منها مزيدا من الإيضاح رغم أنى رافقتها حتى باب بيتها.

وفى مساء الجمعة لم أر أحدا. وفى يومى السبت والأحد لم أذهب إلى عملى وبالتالى لم أمر أمام دار الدكتور ملاكو. ولكن فى مساء الأحد زارنى جارى مستر جوسلنج وهو شخص ثرثار لا غنى عنه فى مجتمعات ضاحيتنا فلم يكد يستقر فى أحد مقاعدى المريحة ويتناول كأسا من الشراب حتى بدأ يثرثر ويفضى إلىّ كعادته بأخبار من نعرف من أهل الضاحية. قال: «هل سمعت بالأمور الغريبة التى تحدث فى شارعنا؟. إن مستر أبركرومبى ومستر بوشامب ومستر كارترايت قد أصيبوا جميعا بمرض أقعدهم عن الذهاب إلى أعمالهم. فى حين اعتكفت مسز اليركر فى غرفة مظلمة تئن وتنتحب»

وبدا لى أن مستر جوسلنج يجهل كل شئ عن الدكتور ملاكو ولافتته النحاسية العجيبة، ومن ثم رأيت ألا أفاتحه بشئ فى هذا الصدد بل أتحرى الأمر كله بنفسى. فبدأت بزيارة المرضى الأربعة على التوالى لكن الرجال الثلاثة أبو أن يرضوا فضولى بكلمة واحدة فى الموضوع. أما الرابعة فرفضت حتى أن تسمح لى بدخول صومعتها أو اقتحام عزلتها. وبدا واضحا أن أمورا غريبة كانت تجرى وراء الستار وأن للدكتور ملاكو

صلة وثيقة بهذه الأمور. ومن ثم قررت أن أزوره – لا كعميل وإنما كمحقق – فلما طرقت بابه أدخلتني خادم أنيقة إلى غرفة الاستشارة، ولم يلبث أن دخل الدكتور ملاكو عليّ وهو يبتسم وابتدرني متسائلا: «أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا سيدي؟». وكانت لهجته لطيفة دمثة تتناقض مع ابتسامته الغامضة التي كانت ترتسم على فمه، دون أن تشاركه فيها عيناه. ولا أدري لماذا جعلتني نظرته الثاقبة، الباردة، ارتجف بقشعريرة خفية

وأجبت محدثي قائلا: «لقد شاءت المصادفة أن أشاهد على باب دارك في أربع ليال متعاقبة ظاهرة غريبة ذات طابع مشترك يدعو إلى الانزعاج. ولئن كان خطابك المقتضب لم يكشف لي ما قد تخفيه لافتتك النحاسية، فإن القليل الذي شاهدته بعيني قد جعلني ارتاب فيما إذا كانت نواياك إنسانية محضة حقيقة كما أوحيت إليّ في ردك ؟. قد أكون مخطئا في شكوكي. فإذا كان الأمر كذلك كان من السهل عليك أن تبادر إلى إعادة السكينة إلى نفسي. لكني أصارحك بأني لن أقنع حتى تعطيني إيضاحا كافيا للحالة التعسة التي خرج فيها من عيادتك كل من مستر ابركرومبي ومستر كاريرايت ومسز اليركر»

لكني لم أفرغ من عبارتي حتى تلاشت ابتسامة الدكتور ملاكو واتخذ وجهه سمة الزجر والتأنيب وهو يجيبني: «سيدي، أنك تغريني بارتكاب حماقة. أفلا تعلم أن الأسرار التي يأتمن عليها المرضى أطباءهم لها حرمة الاعتراف الديني ؟. وأنني لو أرضيت فضولك العقيم لارتكبت بذلك أثما فظيعا ؟. كلا يا سيدي، إنني لن أجيبك على استجوابك الوقح، بل أطالبك بمغادرة بيتي فورا. إليك الباب»

فلما وجدت نفسي مرة أخرى في الطريق شعرت لأول وهلة بشئ

من الخزى فلو كانت نوايا الرجل طيبة لكان على حق فى رفضه إفشاء أسرار مرضاه. فهل كان انزعاج زواره الأربعة يرجع مثلا إلى أنه صارحهم بأمراض خطيرة فيهم كانوا يجهلونها ؟. قد يكون الأمر كذلك ولو أنه بعيد الاحتمال. ولكن ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟

وانتظرت أسبوعا آخر، كنت خلاله أمر بدار الدكتور ملاكو صباح مساء لكنى لم ألحظ جديدا وإن كان موضوع المرضى الأربعة وطبيبهم الغامض قد شغل تفكيرى بصورة متزايدة كانت أشبه بكابوس. حتى اضطررت آخر الأمر إلى أن أشغل أكثر وقتى فى عملى وأسلك إلى بيتى طريقا آخر لا يمر بدار الدكتور ملاكو.

■ ● ■

الفصل الثانى



وبدأت أعتقد أننى قد تخلصت من ذلك الكابوس. حتى زارنى مستر جوسلنج ذات مساء مرة أخرى وكنت أحسب أن طبيعته المرحة ستبدد من ذهنى كل تلك الأفكار السوداء لكن كلماته الأولى التى فاه بها بعد أن ناولته كأسا من الشراب ألقت بى مرة أخرى فى أعماق تلك الدوامة من القلق. فقد ابتدرنى زائرى بهذا السؤال: «هل سمعت أن مستر ابركرومبى قد قبض عليه؟»

فلما أبديت له دهشتى وسألته عن التفصيلات استطرد قائلا: «أنت تعلم أن ابركرومبى يحظى باحترام الجميع فى منصبه كمدير لفرع هام من أفرع أحد مصارفنا الرئيسية. وقد كانت حياته العامة والخاصة على الدوام ناصعة لا غبار عليها مثل أبيه من قبله. بل لقد كان ينتظر أن ينعم عليه فى أقرب فرصة بلقب «سير» ويرشح لعضوية البرلمان عن دائرته الانتخابية. ولكن برغم هذا الماضى الطويل المشرف، يبدو أنه قد اختلس أخيرا مبلغا كبيرا من المال محاولا فى نذالة أن يلصق التهمة بأحد مرؤوسيه»

ولما كنت أعتبر ابركرومبى فى مرتبة الصديق فقد تأثرت لهذا النبأ تأثرا عميقا. وسعيت إليه فى سجنه فوجدته شاحبا هزيلا يبدو عليه الإعياء واليأس. وأدركت أن للدكتور ملاكو ضلعا فى مأساته فناشدته أن

يصارحنى دون مواربة بجلية الأمر فقد تكون فرصة إنقاذه ما تزال سانحة لكنه أجابنى فى لهجة اليائس: «لا فائدة، فقد فات الأوان ولم يبق أمامى غير الانتظار المضنى للموت ولا بقى أمام زوجتى المسكينة وأولادى التعساء غير مواجهة الفاقة والعار. فيالشؤم تلك اللحظة التى عبرت فيها عتبة ذلك البيت اللعين. وسحقا لتلك الساعة التى أصغيت فيها لفراسة ذلك الشيطان الرجيم»

فغمغمت كأنما أغبط نفسى على فراستى أنا الآخر: «صدق حدسى.. ولكن حدثنى بقصتك من البداية» وإذ ذاك اندفع صديقى التعس يفرغ شجنه بين يدى فى هذا الاعتراف الباكى:

عندما مضيت لزيارة الدكتور ملاكو كنت مدفوعا بشعور من الفضول الخالص، فقد ساءلت نفسى: ترى ماذا تكون هذه المغامرات التى يعدها الدكتور ملاكو لزائريه؟. وكان أول ما لفتنى منه بعد دخولى فرط اعتداده بنفسه الذى جعله يعاملنى بنوع من التعالى القريب من الاحتقار ومن نظراته الأولى الحادة الفاحصة شعرت أنه يستطيع قراءة أخفى خفايا أفكارى. وفى البداية بدا لى ذلك مجرد وهم سخيف حاولت أن أزيله من ذهنى. لكنه لم يكد يمضى فى حديثه بنغمة الرتيب الخالى من أبسط مظاهر العاطفة أو الشعور حتى بدأت أقع تدريجيا تحت تأثيره. فزايلتنى إرادتى وطفت إلى سطح عقلى – كوحوش الغابة المنطلقة من الظلمات – أفكار خفية غريبة لم تكن قد راودت وعيى حتى تلك اللحظة إلا فى الأحلام المزعجة والكوابيس. وكما يحدث للسفينة المهجورة فى مجاهل البحار الجنوبية تركت نفسى انجرف مع تيار أفكار الرجل وآرائه وقد أحسست نفسى عاجزا يائسا ولكن مسلوب الإرادة»

وتنهد محدثى تنهدة عميقة واستطرد: «.. وكان حديثنا فى مستهله عاما تناول موضوعات شتى. حتى أشرت أنا إلى أصدقاء لى دمرتهم ظروف أعمالهم السيئة. وتحت تأثير عطف محدثى الظاهر اعترفت له بأن لدى أنا الآخر من الأسباب ما يجعلنى أخشى المصير ذاته. وهنا انبرى الطبيب يقول لى بلهجته المنطوية على الإغراء: «هناك دائما طريق لتجنب الدمار ينفسح أمام كل من يريد أن يسلكه». ثم رمقنى الدكتور ملاكو بنظرة ثابتة واستطرد: «لى صديق كانت ظروفه فى فترة من الفترات لا تكاد تختلف عن ظروفك الحالية فقد كان مثلك مديرا لمصرف حائزا لثقة الجميع. وكان هو الآخر قد ضارب فى البورصة وواجه الدمار، لكنه لم يكن بالرجل الذى يقف مكتوف اليدين أمام خطر كهذا وإنما أدرك أن لديه رصيدا لا يستهان به من السمعة الناصعة والكفاءة المشهود بها فى جميع المهام التى فرضتها عليه مهنته وكان من أهم بنود هذا الرصيد من المؤهلات أن مرؤوسه المباشر فى البنك كان على العكس منه، رجلا ينقصه التزمت المطلوب فى شخص يؤتمن على أموال الناس. كما يعاب عليه ولعه بالخمر وشئ من النزق وعدم الاتزان والتورط فى التصريح ببعض الآراء السياسية الهدامة. وأدرك صاحبى بذكائه الخارق أنه فى حالة اكتشاف أى تلاعب فى حسابات البنك لن يصعب عليه أن يوجه الشكوك إلى مرؤوسه الشاب ذى النزاهة الجريحة.

وهكذا أعد الرجل عدته بحذر بالغ فدس فى مسكن الشاب حزمة من أوراق البنكنوت المسحوبة من المصرف. ثم اتصل بالتليفون بمكتب للمراهنات على سباق الخيل وراهن باسم الشاب – بمبالغ طائلة – على جياد كان معروفا أنها لا يمكن أن تربح. ثم قدر بكل دقة موعد مطالبة مكتب المراهنات للشاب بتسديد قيمة مراهناته ودبر أن يكتشف – فى

ذلك الموعد بالذات - أمر المبلغ الكبير الذى كان هو قد اختلسه سرا من أموال البنك وأراد أن ينسب اختلاسه لمرؤوسه. فلما دهم البوليس مسكن الشاب عثر على حزمة أوراق البنكنوت المدسوسة عليه وخطابات المطالبة بقيمة مراهناته المزعومة. فكانت هذه الأدلة كافية لإثبات التهمة عليه والزج به فى السجن. فى الوقت الذى ارتفعت فيه أسهم الثقة بالرئيس الهمام الذى جمع ثروة طائلة وأنعم عليه بأرفع الألقاب. وانتخب عضوا فى البرلمان. ولن أحدثك عن نشاطه المشهود حين تقلد بعد ذلك منصب الوزارة» ثم ختم الدكتور ملاكو قصته بقوله: «من ذلك ترى أن فى وسع المرء بشئ من الإقدام والابتكار أن يستغل الظروف لمصلحته الخاصة ويظفر فى الوقت نفسه باحترام جميع المواطنين ذوى الفكر الصائب.

وواصل ابركرومبى اعترافه قائلا: «وفيما كان الدكتور ملاكو يروى قصة صديقه كانت تعصف برأسى دوامة من الأفكار. فقد كنت أنا بدورى أعانى مصاعب قاسية نجمت عن تهورى فى مضاربات البورصة. وكان لى أيضا مرؤوس تتوفر فيه كل صفات الشاب الذى وشى به صديق الدكتور ملاكو. ومن جهة ثالثة فبرغم أن أطماعة لم تحلق بى إلى أجواز التفكير فى الظفر بأرفع الأوسمة فإن آمالا كانت تداعب خيالى فى أن أحظى بمقعد فى البرلمان. وكان تحقق هذه الآمال يتوقف إلى حد كبير على نجاحى فى تخطى أزمتى المالية. أما لو فشلت فكان مصيرى المحتوم إلى الفقر والهوان

وفكرت فى زوجتى التى شاركتنى آمالى، وحلمت بأن يصبح لقبها «ليدى ابركرومبى» وتكون لها دار على شاطئ البحر تقضى فيها أشهر الصيف بدلا من تذمرها صباح مساء بسبب الحرمان الذى أصابها من جراء حماقتى. ثم فكرت فى ولدى اللذين يتلقيان العلم فى إحدى المدارس الممتازة ويتطلعان إلى مستقبل زاهر ومناصب رفيعة. أية صدمة تصيبها

إذا ما انتزعا فجأة من جنة أحلامهما ليواجها مستقبلا متواضعا محفوفا بالمصاعب والمشاق؟ وأخيرا فكرت في جيراني وأصدقائي في مورتليك وقد تنكروا لي وصارت نظراتهم تتجنبني كلما صادفتهم في الطريق.

كل هذه الرؤى المفزعة طافت بمخيلتي وصوت الدكتور ملاكو الهادئ الرتيب ينساب ملحا في سمعي. فحدثتني نفسي: «كيف تحتمل كل هذا وأمامك سبيل الخلاص ممهد؟» فأجبتها منكرا: «ولكن هل أستطيع أنا الذي جاوزت سن الشباب والطيش. أنا الذي كانت صفحة حياتي حتى اليوم نقية من كل شائبة. أنا الذي يحييني كل من يعرفني بابتسامة تفيض احتراما. هل أستطيع أن أتخلى فجأة عن كل هذا الأمان لأعيش حياة مجرم تحدق به الأخطار ؟. وكيف أعيش يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة وسيف الفزع من اكتشاف أمري مصلت فوق رأسي ؟. وهل أملك أن أحتفظ في مواجهة زوجتي بروح السمو والثقة بالنفس التي هي عماد سعادتي البيتية؟ وهل أستطيع بعد اليوم أن استقبل ولدي عند عودتهما من المدرسة كل مساء بتلك المثل الأخلاقية التي من واجب كل والد أن يلقنها لأولاده؟. وهل يكون في وسعي أن أندد في كل مناسبة بعجز رجال الأمن عن تعقب المجرمين الذين تهز جرائمهم أعمدة النظام الاقتصادي؟

أدركت ورعدة باردة من الشك تتمشى في أوصالي أنني لو فشلت في أي موقف من مواقف هذا التكلف الزائف - فيما لو حذوت حذو صديق الدكتور ملاكو - لأدى ذلك وحده إلى الارتياب في أمري. وتزايدت وطأة هذا الكابوس الموجع على أعصابي فعدت أحدث نفسي: «كلا. لن أصغي بعد الآن إلى صوت هذا الشيطان اللعين. ولن أحيد قط عن طريق الشرف». ومع ذلك، فما أسهل ما بدا الأمر كله وذلك الفحيح الماكر ماض ينصب في سمعي بكل مغرياته أو لم أقرأ في مناسبة ما أن

علة متاعب هذا العالم إنما هي في أحجامنا عن اقتحام المخاطر؟. أو لم يجاهر أحد الفلاسفة البارزين بأن الإنسان ينبغي أن يعيش حياة يكتنفها الخطر؟. أو ليس من واجبي أن أصغي إلى مثل هذه التعاليم وأعمل بها. سيما وقد أتيحت لي هذه الفرص والظروف المواتية كل هذا الأخذ والرد والشد والجذب والآمال والمخاوف المتعارضة تركتني فريسة لحيرة مرة وبلبلة قاسية لم أعد أستطيع احتمالهما آخر الأمر فانفجرت هاتفا بالدكتور ملاكو: «لست أدري هل أنت ملاك أم شيطان .. ولكن الذي أدريه أنني كنت أتمنى على الله لو لم التق بك قط» وعلى أثر ذلك اندفعت خارجا من العيادة إلى حيث التقيت بك أمام الباب

ومنذ تلك المقابلة المشئومة لم أنعم لحظة واحدة براحة البال. كنت طيلة النهار أتأمل كل شخص أقابله مسائلا نفسي: «ترى ماذا كان ليفعل لو كان مكاني ؟» وفي الليل قبل أن يواتيني النوم كانت أشباح الخراب من ناحية والسجن من الناحية الأخرى، تتقاذفني من هنا وهناك بغير رحمة ولا هوادة وضاقت زوجتي بما اعتراني من أرق وحيرة بادية فأصررت في النهاية على أن أنام في حجرة أخرى كي لا أقلق نومها. وهناك، عندما كان النوم يرحمني أخيرا كانت تتلقفني تؤا كوابيس أمر وأقصى من عذاب اليقظة. كنت أرى نفسي أعبر ممرا ضيقا يفصل بين سجن مخيف وملجأ كئيب من ملاجئ أبناء الفقراء فأمضي أتخبط كالمحموم بين الجانبين محاولا الفرار آونة من هذا المصير وآونة من ذاك وكل حين كنت أرى شرطيا يتقدم نحوي بخطى ثابتة فلا يكاد يلقي يده الثقيلة على كتفي حتى أهب من نومي مفزوعا صارخا.

ولم يكن غريبا بعد كل هذا أن تزداد أعمالي ارتباكا وحالتي المالية سوءا. فأمعن في المضاربة بتهور جنوني ضاعف ديوني المتراكمة

أضعافا. وأخيرا بدا لى أن لا أمل قد بقى أمامى ما لم أحذ حذو صديق الدكتور ملاكو.

لكنى فى غمرة ارتباكى وانفعالى وقعت فى أخطاء لم يقع هو فيها: «فقد تركت أثر بصمات أصابعى على أوراق البنكنوت التى دسستها فى مسكن مرؤوسى النزق. واستطاع البوليس أن يثبت أن المكالمة التليفونية مع مكتب المراهنة على سباق الخيل - وهى التى افتعلتها ونسبتها إلى الشاب قد صدرت فى الواقع من تليفون مسكنى .. وكانت ثالثة الأثافى أن الجواد الذى كنت موقنا أنه سيخسر السباق كان هو - لدهشة الجميع - الفائز الأول وكان ذلك من أسباب تصديق البوليس لإصرار الشاب - وهو المقامر المحترف - على إنكار مراهنته على ذلك الجواد الذى كان ميئوسا من فوزه وفضلا عن هذا كله فقط انكشفت لرجال سكوتلانديارد حقيقة حالتى المالية وسوء ارتباك أعمالى. والأنكى من كل ذلك أن مرؤوسى الذى كنت أحسبه شابا لا وزن له ظهر أنه ابن شقيقة أحد الوزراء.

وأنى لعلى يقين أن شيئا من هذه التطورات لم يدهش الدكتور ملاكو فلست أشك فى أنه قد توقع منذ البداية كل البلايا التى أصابتنى حتى اللحظة الراهنة. أما بالنسبة لى فلم يبق أمامى غير أن استوفى عقابى إلى النهاية. وأخشى أن تكون جريمة الدكتور ملاكو مما لا يقع تحت طائلة القانون. ولكن لو أمكنك أن تهتدى إلى طريقة تصب بها على رأسه عشر معشار الإحزان التى صبها هو على رأسى فلنثق أن فى غياهب السجن قلبا يفيض نحوك بالامتنان وعرفان الجميل

وبقلب اعتصره الإشفاق والرثاء ودعت مستر ابركرومبى واعدا بألا تغيب كلماته الأخيرة عن ذهنى.

■ ■ ■

الفصل الثالث



ضاعفت كلمات مستر ابر كرومبي الأخيرة من حدة حقدي على الدكتور ملاكو حتى لقد شعرت برغبة قوية في أن أراه يتعذب ولكن على يدي ومع ذلك فقد تمنيت لو تفصل بينه وبيني هوة في عمق وظلمة ورهبة النظرات التي كانت تطل من عينيه فلما لم أجد وسيلة لتحقيق أي من هاتين الرغبتين المتناقضتين صرفت همي إلى محاولتي الاستغراق في أبحاثي العلمية أكثر فأكثر وحين بدأت أنجح في محاولتي حدث ما ألقى بي من جديد في هاوية الرعب التي كنت أسعى جاهدا للخروج منها وكان ذلك حين وقفت على مأساة مستر بوشامب

كان مستر بوشامب هذا رجلا في نحو الخامسة والثلاثين عرفته طيلة الأعوام السابقة كدعامة من دعائم الفضيلة في مورتليك. وكان يعمل سكرتيرا لجمعية تتولى توزيع الكتب المقدسة، وكان إلى جانب هذا من المتحمسين للتبشير بالعفة الجنسية. وكان يرتدي على الدوام سترة سوداء عتيقة وقورة ورباط رقبة أسود أيضا وبنطلونا مخططا يبدو من هيئته أنه شاهد أياما أفضل. وكان الرجل يباهي دائما بأنه لم يذق الخمر في حياته. وكان إذا ضمه مجلس من مجالس الرجال واطمأن إلى نفورهم من المجون أبدى اشمئزازه من شيوع ما سماه بـ « الاتصال البهيمي » أما مآدب العشاء

الساهرة فكانت فى رأيه منكرا بل رجسا بغيضا. وبالاختصار لم يكن فى مورتليك شخصا يستطيع أن يذكر له سابقة واحدة يحمر لها وجه الفضيلة.

ولكن قبيل اليوم الذى صادفته فيه خارجا من دار الدكتور ملاكو لوحظ على بوشامب شئ من التغير فى مسلكه. فإن السترة السوداء والبنطلون المخطط تاركا مكانهما لحلة كاملة رمادية اللون ورباط الرقبة الأسود استبدل بآخر أزرق اللون. وقل استشهاد الرجل بآيات التوراة فى حديثه. وبات فى وسعه أن يرى رجالا يشربون الخمر فى المساء. دون أن يلقى عليهم محاضرة فى أضرار الشراب. بل لقد شوهد مرة – ومرة وحيدة فقط – يهرع فى الطريق نحو المحطة وقد تربعت فى عروة سترته قرنفلة حمراء. على أن هذا النزق الذى كان حديث الضاحية كلها لم يتكرر

لكن الشائعات وجدت مادة جديدة دسمة حين وقع حدث أخطر بعد ذلك بأيام فقد شوهد مستر بوشامب جالسا فى سيارة فارهة أنيقة إلى جوار شابة حسناء ترتدى زيا باريسيا خلابا. وضجت المدينة بأسرها تعليقا على الفضيحة الجديدة فتساءل الكل عمن تكون تلك الحسناء ؟.. وكان مستر جوسلنج كعادته أسبق الجميع إلى شفاء غليل الفضوليين. وذات مساء فوجئت به يدخل على ويبتدرنى سائلا: « هل عرفت شخصية المرأة التى أخرجت جارنا القديس عن طوره ؟» فلما أجبته بالسلب قال مستطردا: «حسنا، إليك قصتها: أنها تدعى «يولاند مولينو » وهى أرملة الكابتن مولينو الذى كانت نهايته الأليمة فى أدغال بورما من أقسى فواجع الحرب الأخيرة. وقد ورثت عنه ثروته الطائلة التى جمعها أبوه من صناعة الصابون. فأعانتها هذه الثروة على أن تنسى حزنها عليه دون كبير مشقة، سيما وأنها كانت ذات فضول لا يشبع إلى معرفة مختلف أنواع الرجال فعرفت منهم أصحاب الملايين والمشعوذين وفقراء الهنود .. إلخ. وهكذا

صادفت أثناء سياحاتها عينة جديدة كانت تنقص مجموعتها من الرجال فى شخص مستر بوشامب الذى وجدت فيه مادة ممتعة للدراسة. بينما تدله هو مخلصا فى هواها. والحق أنى لأرتجف إشفاقا على المسكين مما هى كفيلة أن تفعل به»

وانتابنى إحساس خفى بأن هذه البداية نذير شر لجارنا الطيب لكنى عجزت عن التنبؤ بفداحة الكارثة التى كانت تنتظره لجهلى وقتئذ بمدى نشاط الدكتور ملاكو. ولم أحدس ما قد يتطور إليه الأمر إلا بعد أن سمعت قصة ابر كرومبى ولما كان متعذرا على التفاهم مع الدكتور ملاكو فقد رأيت أن أتصل بالحسناء يولاند نفسها وكانت تقطن فى دار جميلة بجهة «هام كومون» ولخيبة أملى وجدت أنها لا تعلم شيئا عن الدكتور ملاكو فإن صديقها بوشامب لم يحدثها عنه بكلمة وكانت لهجتها فى الحديث عن بوشامب مشوبة بخليط من التهكم والعطف والازدراء. بل لقد أعربت عن أسفها لمحاولته تكييف نفسه وفقا لما يعتقد أنه يروقها « فقد كان يعجبنى فيه استشهاده بالآيات الدينية فى كل مناسبة وتزمته فى تحريم الخمر. بل كنت أحب منظره وهو مرتدٍ بنطلونه المخطط فإن هذه المظاهر الشاذة هى التى تجعله مسليا فى نظرى وكلما حاول التشبه بالإنسان الطبيعي كلما تعذر على أن أبقى على مسلكى الودى معه الذى لولاه لقادته عاطفته إلى اليأس ولكن من العبث أن أحاول إيضاح هذه الأمور للغرير المسكين فإنها فوق مستوى إدراكه السيكولوجى»

وعبثا حاولت إقناع مسز مولينو بالابتعاد عن طريق الساذج المسكين فقد راحت تقول: «هراء .. فإنه فى حاجة إلى القليل من العاطفة الخارجة عن نطاق تزمته الدينى كى تكسبه مزيدا من القدرة على التفاهم مع الخطاة الذين يشغلون كل اهتمامه. فأنا أعتبر نفسى فى الواقع أؤدى خدمة

إنسانية بل أكاد أساهم في رسالته ذاتها وسوف ترى أن قدرته على تلخيص الخطاة ستتضاعف مائة مرة قبل أن أنتهي منه فإن كل وخزة من ضميره ستتحول على لسانه إلى فصاحة ملهبة وأمله في أن لا يكون طريق التوبة قد سد في وجهه نهائيا سوف يمكنه من أن يرسم طريق الخلاص الكامل حتى لأولئك الذين كان يعتبرهم من الهالكين». ثم استطردت المرأة وهي تطلق ضحكة مرحة: «ولكن كفانا من مستر بوشامب فإني واثقة أنك بعد هذه المحادثة الجافة تتوق إلى تغيير مذاقه بكأس من الكوكتيل الذي أتقن تحضيره.

وأدركت عقم مثل هذه المحادثات مع مسز مولينو وحين حاولت التحدث إلى بوشامب نفسه كنت في كل مرة أجده ملهوفا إلى زيارة صاحبته في دارها أو مشغولا في عمله وأن يكن قد ازداد إهمالا لهذا العمل يوما بعد يوم. وحتى قطار المساء الذي اعتاد أن يعود به كل ليلة لم يعد يجده أكثر الليالي في مقعده المألوف. وهكذا في الوقت الذي فيه أتمنى له أحسن الاحتمالات كنت أخشى عليه من أسوئها.

وقد وقع ما كنت أخشاه. فبينما كنت مارا أمام بيته ذات مساء شاهدت جمعا يتزاحم على بابه ولمحت خادمته العجوز تناشدهم باكية أن يتفرقوا. فتقدمت منها وسألتها في انزعاج عما هنالك؟ فقالت المسكينة وهي تشرق بدمعها: «أواه يا سيدي، لن أنسى ما حييت المنظر البشع الذي وقعت عليه عيناي حين فتحت باب غرفة المخزن فرأيت سيدي التعس معلقا بحبل في أحد خطافات السقف التي تستعمل عند اللزوم لتعليق الكوارع وضلوع لحم الخنزير. وكان المقعد الذي صعد عليه مقلوبا على الأرض تحت قدميه»

ولم أحصل من المرأة على أية معلومات أخرى تعلل سبب الحادث لكنى استنتجت طبعا أن فى وسع تلك الحسناء العابثة يو لاند أن تلقى مزيدا من الضوء على ملابسات المأساة فمضيت توا إلى دارها حيث وجدتها تقرأ خطابا وصلها قبل لحظات على يد رسول خاص. وابتدرتنى قبل أن أخوض فى الموضوع: «لقد فرغت لتوى من قراءة آخر كلمات ذلك الرجل التعس الذى أدركت الآن فقط مدى خطئى فى فهم عمق إحساساته. لست أنكر أننى الملومة. لكنى لست المذنبة الرئيسية. بل إن الخليق بهذا الوصف شخص أشر وأخطر منى. وأحسبك تفهم أننى أعنى الدكتور ملاكو الذى يكشف هذا الخطاب عن حقيقة الدور الذى لعبه ولما كنت أعلم أنك صديق لبوشامب وأنك العدو الألد لذلك المشعوذ الأثيم فلست أرى بأسا فى أن أطلعك على الخطاب»

ودفعت إلىّ برسالة المنتحر الأخيرة فأخذتها وانصرفت. فإنى لم أستطع تهيئة نفسى لقراءتها إلا فى حجرتى الخاصة. وهناك نشرت صفحاتها العديدة على ركبتى بأصابع مرتجفة فهبت علىّ منها أنفاس ذلك الشيطان الداهية بحيث وجدت صعوبة فى أن أنحى من أمام ناظرة شبح عينيه المهلكتين. وأخيرا استطعت الخلاص من إلحاح ذلك الشبح وأجبرت نفسى على الاستغراق فى جو الأشجان التى دفعت ببوشامب المسكين إلى فعلته اليائسة. وفيما يلى رسالة ذلك الشقى :

■ ■ ■

الفصل الرابع



حبيبتي الغالية يولاند..

لست أدرى إذا كانت محتويات خطابي هذا ستكون مدعاة لحزنك أو تفريجا لكربك. وعلى كلا الحالين فإني أشعر أن كلماتي الأخيرة على الأرض ينبغي أن توجه إليك – فهذه هي بالفعل كلماتي الأخيرة، لأني حين أفرغ من كتابة هذا الخطاب أكون قد انتهيت..

تعلمين أن حياتي كانت خاوية لا طعم لها حتى دخلتها أنت فمنذ عرفتك تبينت أن في الوجود أشياء أخرى ذات قيمة إلى جانب النواهي والمحرمات التي كنت أقصر عليها نشاطي. ورغم أن الأمر كله قد انتهى إلى كارثة فلست آسف – حتى في هذه اللحظة – على الأوقات السعيدة التي بدا لي فيها أنك تبتسمين لي. لكني لم أكتب إليك اليوم لأبثك مشاعري وإنما لأكشف لك ما خفي عليك من جوانب مأساتي. فإنني برغم فضولك الطبيعي لم أصارحك قط بما جرى بيني وبين الدكتور ملاكو عند زيارتي له عقب تعرفي بك بفترة وجيزة. وكنت وقتئذ قد بدأت أتمنى لو كانت لي تلك الشخصية الجذابة الكفيلة بأن تخلب لبك. بل بدأت أنفر وأتمرد على شخصيتي الماضية. شخصية المتزمت الأبله الذي لا تطيب عشرته فقد شعرت أن حياة جديدة تنفسح أمامي لو استطعت فقط أن أحظى

بإعجابك. ولم أرَ أمامى أية وسيلة تحقق لى هذه الأمنية حتى كانت زيارتى المشئومة لذلك الشيطان الخبيث المتجسد. فقد استقبلنى يومئذ بابتسامته اللطيفة وأدخلنى إلى غرفة الاستشارة حيث ابتدرنى بقوله: « لكم يسرنى يا مستر بوشامب أن تشرفنى بالزيارة فلقد طالما سمعت عن أعمالك الطيبة وأعجبت بتكريسك حياتك لخدمة أغراض نبيلة. لذلك أعترف أننى أجد شيئا من الصعوبة فى أن أعرف فيك ناحية معينة أستطيع أن أؤدى لك فيها خدمة أو نفعا. ولكن إذا وجدت هذه الناحية فما عليك إلا أن تأمر فأطيع. والآن قبل أن نبدأ حديثنا يحسن أن أقدم إليك شيئا من الشراب. وأنا أعلم جيدا أنك لا تشارك فى عصير الكروم أو غيره من أنواع الخمر لذلك لن أهينك بتقديم شئ منها لك. ولكن أحسبك لا تمانع فى قدح من الكاكاو الجيد »

فشكرته، لا من أجل لطفه فحسب بل لمعرفته بذوقى وميولى. فلما فرغت من احتساء الكاكاو الذى قدمته إلى خادمته شرعنا فى الحديث وكانت فى الرجل قوة مغناطيسية استدرجتنى إلى طرح كل تحفظ والإفضاء بأكثر مما كنت أنوى أن أفضى به. فحدثته عنك. حدثته عن آمالى وحدثته عن مخاوفى. حدثته عن التغيير الذى طرأ على أحلامى وأطماعى ومعتقداتى. حدثته عن لحظات حنانك المسكر التى أعانتنى على احتمال الحياة دهرا أيام فتورك الموجع. حدثته عن مدى إدراكى أننى – إذا كان لى أمل فى أن أحظى بك – فينبغى قبل ذلك أن أقدم الكثير، الكثير من عروض الحياة. ولكن ليس من عروض الحياة فحسب وإنما الكثير من غنى الشخصية أيضا وطلاقة الحديث. وأخيرا صارحته بأنه لو استطاع أن يعيننى على بلوغ هذا كله لغدوت مدينا له مدى الحياة. ولغدت الجنيهات العشرة الزهيدة التى كان علىّ أن أدفعها أجرا لاستشارته أعظم استثمار

لمبلغ من المال فى تاريخ البشرية.

فلما فرغت من حديثى رمقنى الدكتور ملاكو برهة بنظرة فاحصة ثم قال فى صوت المتأمل المتمهل: «لست أدرى إذا كان ما سأقوله لك سينفعك أم لا. لكننى سأقص عليك على أى حال قصة صغيرة تمت بالصلة لحالتك: لى صديق، هو رجل معروف لعلك صادفته خلال عملك، وكان قد قضى سنواته الباكرة مثلما قضيت أنت ما سلف من عمرك. فقد أحب مثلك امرأة فاتنة وأدرك من البداية أن أمله فى الظفر بها ضئيل ما لم يجمع من الثروة أكثر مما كان يتيح له عمله أن يجمع. وكان هو بدوره يعمل فى توزيع الكتب المقدسة بمختلف اللغات فى شتى البلاد. وذات يوم التقى فى القطار بناشر ذى سمعة مريبة ما كان هو ليعبأ فى سالف حياته بأن يعيره التفاتا. أما الآن فإن أحلام هواه كان لها عليه سلطان حرره من ضيق الأفق الذى كان يجعله يأنف فى الماضى من معاملة أمثاله من الهالكين.

وألمع الناشر فى سياق حديثهما إلى الشبكة الدولية الواسعة التى تتولى توزيع المطبوعات المريبة ونشرات الأدب المكشوف بين طبقة المنحلين من القراء الذين تستهويهم هذه المادة الرخيصة. ثم استطرد الناشر قائلا أن الصعوبة التى تواجه القائمين على أمر هذه الشبكة الضخمة للتوزيع هى صعوبة الإعلان فليس التوزيع السرى هو المشكلة وإنما المشكلة فى كيفية الإعلان سرا عن هذه التجارة. وعند هذا التمعت عينا الناشر وارتسمت على فمه ابتسامة خبيثة وهو يستطرد مخاطبا صاحبى: «.. فلو أتيح لنا أن نستعين بشخص مثلك لحلت مشكلة الإعلان السرى على أحسن وجه. ففى وسعك إذا أردت أن تضيف فى أسفل بعض صفحات الكتب المقدسة التى توزعها عددا من الحواشى المناسبة: فمثلا حين تحدثنا الآية عن شرور القلب البشرى وخداعه تضع أنت

حاشية تقول: «يمكن الحصول على المزيد من الإيضاحات التى تتصل بشرور القلب البشرى من الناشر » فلان «. وفى الموضع الذى يأمر فيه يهوذا خدمه بالبحث عن الزانية خارج أبواب المدينة تضيف أنت حاشية تقول: «إن أكثر قراء الكتاب المقدس يجهلون ولا شك معنى كلمة » زانية « ولكن فى وسع الناشر أن يوضح لهم المعنى المقصود إذا أرادوا » وهكذا .. ثم خلص الناشر من ذلك إلى إبداء شكه فى أن يقبل صاحبى القيام بهذه المهمة وإن كانت كفيلة بأن تعود عليه بأرباح طائلة »

ثم أردف الدكتور ملاكو يكمل لى قصته الشائقة: «ولم يضيع صاحبى وقتا طويلا كى يتخذ قرارا فى الأمر فلم يكد القطار يصل إلى غايته فى محطة لندن حتى مضى فى صحبة الناشر إلى مكتب الأخير حيث استعانا ببضع كؤوس من الخمر على إتمام اتفاقهما بكافة تفصيلاته. واستمر صديقى فى توزيع كتبه المقدسة التى تزايد الإقبال عليها أكثر من أى وقت مضى وتضخم بالتالى توزيع المطبوعات المريبة التى أشارت إليها الحواشى فاقتسم الشريكان أرباحهما الطائلة. فلم يمض زمن حتى صار صديقى من الأثرياء واقتنى دارا جميلة وسيارة فاخرة ثم كف تدريجيا عن الاستشهاد فى كلامه بالآيات الدينية – فيما عدا الآيات التى أضاف إليها شروحه وحواشيه – وصارت أحاديثه ممتعة وسخرياته لاذعة. فإذا المرأة التى كانت تعبث بعواطفه قد افتتنت به فتزوجا وعاشا سعيدين. وأنت قد تجد فى هذه القصة ما يهمك أو لا تجد ولكنى أخشى أن تكون هى المخرج الوحيد الذى أستطيع أن أساهم به فى حل مشكلتك»

■ ■ ■

الفصل الخامس

أفزعنى ما بدا لى فى طيات هذه القصة من بشاعة إيحاء الدكتور ملاكو أحسست أنه مما يخرج عن طوقى أن أفكر - أنا الذى كانت تسيطر على حياتى أصرم قواعد الاستقامة والعفة - فى أن تكون لى أدنى صلة بعمل مشين مثل توزيع نشرات الفحش والبذاءة. وصارحت الدكتور ملاكو بهذا فى لهجة قاطعة فما كان منه إلا أن ابتسم لى ابتسامة دهاء غامضة وقال: «يا صديقى .. ألم تشعر منذ أسعدك الحظ بالتعرف إلى مسز مولينو بشئ من ضيق الأفق فى المسلك الذى سلكته حتى الآن فى حياتك؟. إن قليلا من الحرية، شعاعا من ضوء النهار، نسمة من الهواء النقى، حتى فيما يتصل بالنواحى التى تحرص على أن تبعد أفكارك عنها لا يمكن أن تعود عليك إلا بالخير فضلا عن أن فى الكتاب المقدس أمثلة تزكيها وتوصى بها »

فانبريت لمحدثى أجيبه: «ولكن ألا ترى خطرا فى أن يؤدى انتشار مثل تلك المطبوعات إلى إغراء الشبان والشابات بارتكاب الخطيئة المميتة؟ وهل أستطيع أن أواجه الناس وأنا أعلم أن هناك فى الوقت نفسه إنسانين غير متزوجين يستمتعان بلذة محرمة نتيجة لأفعال أجنى منها أنا ربحا ماديا؟ »

وأجابني الدكتور ملاكو نفوره: «وأنت .. هل فكرت مليا في قصة التسعة والتسعين بارا الذين لا يحتاجون إلى توبة وكيف أن السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب أكثر مما تفرح بهم جميعا؟ وهل حاولت يوما أن تستخلص مغزى توبة الابن الضال ؟. أو لم تساءل نفسك عن حكمة الإشادة بنصيب القلب المنكسر والنفس المنسحقة؟ وهل في وسعك أن تزعم أن قلبك كان منكسرا ونفسك كانت منسحقة قبل أن تعرف مستر مولينو؟ وهل دار بخلدك يوما أن القلب لا ينكسر والنفس لا تنسحق إلا إذا أخطأت أولا ؟. إنك معي في أن هناك كثيرين من الذين يشترون تلك المطبوعات الإباحية سوف يتوبون فيما بعد وعندئذ ستفرح بهم السماء أكثر مما تفرح بالأبرار الذين كنت أنت حتى الآن نموذجا لهم»

وبلبل ذهني هذا المنطق وأزعجتني حججه المربكة ولكن بقي لي اعتراض واحد واجهت به محدثي متسائلا: «أو لا ينطوي هذا المسلك الذي تشير إليه على مخاطرة كبرى قد تنتهي بالمرء إلى الوقوع في قبضة رجال الأمن إذا استطاعوا أن يكتشفوا خيوط هذه التجارة المشينة؟ أو لا تتثاءب أبواب السجون لهفة لاقتناص مروّجي هذه المطبوعات المحرمة؟»

فصاح بي الدكتور ملاكو مقاطعا: «مهلا، مهلا يا صديقي. إن في نظامنا الاجتماعي لدروبا ومسالك ملتوية تخفى عليك وعلى أمثالك أو أنت من السذاجة بحيث تحسب أنه حيث تتداول هذه الأرباح الضخمة، يعدم المرء شخصا من المسئولين يقبل عن طيب خاطر - مقابل نسبة من الربح - أن يكون عونا للخارجين على القانون أو في القليل يغمض عنهم عينيه ؟. وبهذه المناسبة دعني أنصحك يا صديقي - فيما لو قررت أن تحذو حذو زميلك - أن تستوثق أولا من أن أعضاء السلطات بات رهن مشيئتك»

ولم تسعفنى بديهتى بحجة أجيب بها وحين غادرت دار الدكتور ملاكو كنت فى حالة من التشكك - لا فيما ينبغى على أن أفعل فحسب وإنما فيما يتصل بأسس القيم الأخلاقية بأكملها وبأهداف الحياة الفضلى. وفى البداية شل هذا التشكك كيانى كله، فانقطعت عن الذهاب إلى مقر عملى. وأفرخت وتوالدت فى ذهنى بويضات التفكير الأسود فيما ينبغى أن أفعل وفى المسلك الذى يتعين علىّ أن أتخذه فى الحياة. وبالتدريج، تفاقم سلطان منطق الدكتور ملاكو على خيالى أكثر فأكثر لم أعد أشغل نفسى بالبحث فيما هو الصواب وما هو الخطأ وإنما حصرت كل همى فى أمر واحد: هو أن أسلك الطريق الذى يوصلنى إلى قلب محبوبتى يولاند.

وفى النهاية حسم القدر ترددى وأبرم فى قضاءه المحتوم. إذ التقيت ذات يوم برجل على جانب كبير من الحكمة ورجاحة العقل، وكان يدعى العلم بكافة حلقات اتصال البوليس بطريدى العدالة ويباهى بقدرته على التمييز بين رجال الأمن النزيهين والملوثين بحيث بدا لى أنه يرتزق من العمل كوسيط بين الشارعين فى الإجرام وبين معاونيهم من ذوى النفوذ. فطلبت إليه أن يعرفنى بواحد من أولئك الذين يحترفون الإغضاء عن الجرائم. زاعما له أن واجبى الإنسانى يقتضينى أن أوسع دائرة تجاربى ومعلوماتى إلى أقصى حد. وقد كان: عرفنى بمن يدعى «المفتش جنكنز» فلما توثقت بيننا صلة الود مهدت لغرضى بسلسلة من المقدمات اللبقة حتى تطوع المذكور بتقديمى إلى الناشر المريب المنشود وعندئذ فقط كاشفت الناشر - بعد بضع مناوشات تمهيدية - بحقيقة نواياى. فقبل الفكرة مرحبا غير أنه اشترط - ضمانا لسلامته - أن أشرح له مشروعى كتابة وأوقع عليه.

كل ذلك حدث بالأمس فقط بينما كانت الآمال العريضة ما تزال

تدفعنى خطوة فخطوة نحو الضياع. رباه ! كيف أقوى على البوح بالحقيقة الرهيبة التى لا تظهر فقط مبلغ شرى ونذالتى وإنما مبلغ حماقتى وغبائى أيضا ؟. ففى صباح اليوم طرق بابى ضابط بوليس. لم أكد أفتح له حتى واجهنى بذلك المستند الذى وقعته، وقال لى: «لقد انطلت عليك حيلة المفتش جنكنز فحسبته متواطئا معك، فى حين أنه - على العكس - رجل كرس حياته للمحافظة على سلامة حياتنا القومية من كل شائبة فساد. أما سمعته الملوثة التى حرص على إيهامك بها فإنما كانت فخا منصوبا لاصطياد المجرمين أمثالك. وأما الناشر المزعوم الذى استخلص منك وثيقة اتهامك فكان بدوره مخبرا من رجال المباحث. وهكذا ترى يا مستر بوشامب أن آمالك فى النجاة من الفضيحة والعقاب. أو هى من نسيج العنكبوت»

قالها وانصرف. فأدركت توا أن ليس ثمة أمل بقى لى ولا فرصة فى أن أنعم بحياة لا ينغصها الخزى والعار. وحتى لو واتانى الحظ فنجوت من السجن فإن خزيى كفيل بأن يقف سدا بينى وبين إمكان مواجهتك بعد الآن، أنت التى لا تطيب الحياة بدونك. وهكذا لم يبق أمامى سوى الموت. سوى أن أمضى إلى حيث أقابل خالقى الذى سوف يحيق بى ولا شك غضبه العادل، فيعاقبنى بذلك العذاب الأبدى الذى طالما تنبأت به للآخرين وأفزعتهم منه ولكن هناك التماسا واحدا أؤمن بأن الله سيسمح لى بأن أرفعه إليه قبل أن أنتزع من حضرته الإلهية المرهوبة. ولن يكون التماسى الأخير غير هذا: «بين جميع الأشرار من بنى البشر الذين أثموا منذ بدء الخليقة ما من مخلوق منهم يمكن أن يكون أشر ولا أحق باللعنة من الدكتور ملاكو الذى أتوسل إليك يا إلهى أن تدخره لهاوية خاصة سحيقة من أغوار الجحيم الذى أتهيأ الآن لاتخاذه مقرا أبديا لى»

ذلك كل ما سأبغى أن أقوله لخالقى: أما أنت أيتها الحبيبة، فمن أعماق الهاوية التى ترديت فيها أتمنى لك كل السعادة وكل الخير

تلك كانت رسالة بوشامب الأخيرة وهو على أبواب الأبدية. وبها أسدل الستار على الضحية الثانية من ضحايا الدكتور ملاكو.

■ ■ ■

الفصل السادس

بعد هذا المصير المفجع لمستر بوشامب انقطعت أسابيع قبل أن أقف على ما جرى للضحية الثالثة « مستر كارترايت » الذى وإن جاء مصابه أرحم وأخف وطأة مما أصاب سابقيه إلا أنه على أية حال مصاب لا يرحب به إنسان

كان مستر كارترايت مصورا شهيرا من محترفي فن التصوير الفوتوغرافى، يحظى بلقطات عدسته أشهر نجوم السينما ورجال السياسة. وكانت له مساعدة ذات حظ وافر من الجمال تدعى « لاليج سكراجز » لا يشوب جمالها – فى نظر عملائه – غير فتورها الملحوظ نحوهم. على أنه يقال أن هذا الفتور كان معدوما في علاقة المرأة بشخص مستر كارترايت بل إنهما كانا على صلة عاطفية حارة لا يدعمها أى رباط شرعى.

على أن هناك مستر كارترايت كان يشوبه منغص واحد شديد هو أنه برغم انهماكه في عمله ليل نهار وبرغم أن عملائه من علية القوم كانوا يزدادون يوما بعد يوم فقد كان عاجزا عن إشباع مطالبه المادية ومطالب معشوقته الفاتنة « لاليج » بسبب جشع وتعسف مصلحة الضرائب

كان الرجل يحدث نفسه في مرارة: «ما جدوى كل هذا العناء

الذى أقاسيه إذا كانت الحكومة تستولى منى على تسعة أعشار دخلى لتنفقه على كذا وكيت من الأمور التى لا تهمنى فى شئ ؟. » وقد تفاقم تذمره هذا بمرور الأيام حتى أفسد حياته وجعله يفكر جديا فى المهاجرة إلى مملكة موناكو الحرة مثلا كيما ينجو من قبضة مصلحة الضرائب. فلما قرأ لافتة الدكتور ملاكو خطر له أن يزوره لعله يجد عنده ما يبدد ضجره من الحياة بسبب الغبن الذى يلحقه من تلك المصلحة. وحصل منه بالفعل على موعد فى عصر يوم لم يكن مطالبا فيه بتصوير أية ممثلة سينمائية أو وزير أو سفير دولة أجنبية. حتى سفير الأرجنتين الذى كان قد وعد بأن يدفع له أجره عينا من اللحم البقرى اختار للدفع يوما آخر

وفى الموعد المحدد مضى الرجل إلى دار الطبيب فلما سأله الدكتور ملاكو عن طلبه، أجابه: «أريد الاهتداء إلى طريقة لكسب المال لا تقع تحت طائلة مصلحة الضرائب فإذا استطعت أن ترشدنى إلى مثل هذه الطريقة كنت لك شاكرا ممتنا » فما كان من الدكتور ملاكو إلا أن أجابه بقوله: «أعتقد أن فى وسعى إرشادك إلى ما تطلب فإن الأمر قد بات يمس كبريائى المهنى بحيث يخجلنى أن أخذلك. وإليك قصة قد تعينك فى هذا الصدد: لى صديق يعيش فى باريس هو بدوره مصور فونوغرافى نابغ مثلك وله مثلك مساعدة حسناء فاتنة شديدة الولع بمتع باريس وملاهيها – وبالتالى شديدة الإسراف فى نفقاتها – وقد أرهقته تقدمية مبتكرة، هى أن يتتبع حركة كبار القادمين إلى العاصمة من ذوى الشخصيات الكبيرة والأسماء اللامعة فإذا علم بوصول واحد منهم رابط فى انتظاره فى مدخل الفندق الذى اختاره لمقامه. وهناك تقف المساعدة الحسناء بالقرب من مكان موظف الاستعلامات المختص بتسجيل أسماء نزلاء الفندق وإرشادهم إلى أرقام حجراتهم. فلا يكاد الزائر الكبير يقف أمام الموظف

المذكور ليتم إجراءاته حتى تتظاهر المساعدة الحسناء بأنها قد أصيبت بدوار وأنها على وشك السقوط مغمى عليها. فيخف العظيم الشهم طبعا إلى نجدتها. وفى اللحظة التى يحيطها فيها ذراعيه ليحميها من السقوط يلتقط المصور الماكر صورتهما فى ذلك الوضع. وفى اليوم التالى يمضى لزيارة صاحبنا فى جناحه الخاص ومعه نسخة مطبوعة مكبرة من الصورة التى التقطها له بالأمس ثم يسأله عن المبلغ الدسم الذى هو مستعد أن يدفعه ثمنا للحصول على أصل الصورة وجميع النسخ التى طبعت منها فإذا كان سياسيا أمريكيا أو رجلا بارزا من رجال الدين مثلا، لم يتردد فى دفع مبلغ كبير اتقاء للفضيحة. وبهذه الطريقة ضرب صاحبى ثلاثة عصافير بحجر واحد: أولها أنه يربح أرباحا طائلة، وثانيها أنه لا يخضع لرقابة أو سلطان مصلحة الضرائب. وثالثها أنه بعد أن كان يعمل ليل نهار صار يعمل يومين فقط فى لأسبوع: اليوم الذى يلتقط فيه الصورة واليوم الذى يزور فيه الضحية. أما مساعدته الحسناء فعملها قاصر على يوم واحد فقط. وبقية أيام الأسبوع يقضيانها معا فى اللهو وإنفاق المال.

وختم الدكتور ملاكو قصته قائلا لزائره: «لعلك تجد فى هذه الحكاية الواقعية مخرجا لك من الغبن الذى تشكوه» والواقع أن القصة راقت فى نظر المصور المشهور فلم يجد فيها غير عائقين: أولهما خوفه من افتضاح أمره ووقعه فى قبضة رجال البوليس. والعائق الثانى – والأقوى – غيرته على مساعدته الحسناء من التقلب فى أذرع الرجال البارزين التى قد تجد بينها ذراعين تفضلهما على ذراعيه هو.

ولكن فيما هو متردد يقلب الأمر على وجوهه تلقى إخطار بوجوب دفعه مبلغ اثنى عشر ألف جنيه كضريبة دخل وضريبة أرباح استثنائية. ولما كان الرجل لا يؤمن بفضيلة الادخار ولم يكن فى وسعه

تدبير هذا المبلغ الضخم بأية وسيلة فإنه لم يبق أمامه غير أن يحذو حذو ذلك المصور الباريسى الماكر

وبعد تفكير وموازنة قرر أن يكون ضحيته الأولى أسقف إقليم « بوريا بولاجا » بأواسط أفريقيا. وكان الأسقف يزور لندن لمناسبة عقد مؤتمر دينى كبير فيها. وسار كل شئ طبقا للخطة الموضوعة فسقطت المساعدة الحسناء بين ذراعى الأسقف الوقور. وأحاطت الذراعان بجسمها اللين دون أدنى إجفال ظاهر وبرز مستر كاترايت من مكمنه فى اللحظة المناسبة ثم زار الأسقف فى جناحه فى اليوم التالى حاملا إليه معه صورة كبيرة معبرة.

وكان الثمن المتواضع الذى طلبه المصور من الأسقف ثمنا لتلافى الفضيحة ألف جنيه كاملة عجز الرجل عن دفعها فأعطى دائنه كمبيالة بها تعطيه الحق فى الحجز على مرتبه أولا بأول. وهكذا خرج كارترايت معجبا بسعة صدر رجل الدين وسهولة اقتناعه بمقتضيات الموقف.

على أن الأسقف كان - لسوء حظ كارترايت - رجلا واسع الحيلة، قاسى الدعاية الأمر الذى أدى إلى لوم رؤسائه الدينيين له فى عدة مناسبات وإبعادهم إياه إلى ذلك المركز التبشيرى النائى فى أواسط إفريقيا. وهكذا لم يكد يقع فى مأزق تلك الصورة الفاضحة التى التقطت له حتى راح يقدح زناد فكره بحثا عن وسيلة ينجو بها من قبضة المصور، ويوقعه فى قبضته هو إذا استطاع. وأخيرا هداه تفكيره إلى هذه الحيلة: أرسل إلى كارترايت رسالة تبدو صادرة من السفير السوفيتى يدعوه فيها إلى مقابلته فى فندق عينه. وفى الساعة المحددة أرسل ممثلا مغمورا وجده شديد الشبه للسفير المذكور كى يقابل المصور منتحلا صفة السفير. وبعد أن

صافح السفير المزعوم صاحبنا سلمه فى يده ظرفا كبيرا. وفى تلك اللحظة تلتقط صورة له من وراء ستار وهو يتناول الظرف من السفير السوفيتى وعندئذ نظر كارترايت إلى الظرف فإذا مكتوب عليه تحت اسمه بأضخم خط: «عشرة ملايين روبية»

وفى اليوم التالى كان الأسقف هو الذى زار كارترايت ليعرض عليه الصورة الخطيرة ويقول له: «والآن يا صديقى، أحسبك لا تجهل أنه إذا كانت صورتى وأنا أعانق امرأة حسناء فيها شئ من الغضاضة بالنسبة لمركزى الدينى فى « بوريا بولاجا » فلا شك أن صورتك وأنت تقبض هذا المبلغ الضخم من السفير الروسى تنطوى فى نظر سلطان الدولة على مغزى أخطر بكثير من تلك الغضاضة. على أننى لن أقسو عليك فإنى معجب فى الواقع بعبقريتك ومن ثم لن أطالبك فى نظير تسليمك أصل هذه الصورة ونسخها بأكثر من رد كمبيالة الدين الذى فرضته علىّ. ثم وضع بعض القيود على استمرارك فى ممارسة مهنتك الجديدة. ومن مقتضى هذه القيود أن تقصر تهديداتك المصورة هذه على فئة من الأشرار الخونة من الرجال البارزين وأن يكون نصيبى من الأموال التى تحصل عليها بهذه الطريقة: تسعين فى المائة. ولتثق أننى لن أستخدم هذا المال لمنفعتى الشخصية. وإنما لمحاربة الوثنية بين قبائل زنوج إفريقيا سيما وأننى أتبارى فى هذا الشأن مع أسقف بلاد « نيام نيام » وأملى أن أفوز عليه فى عدد الرؤوس التى أهديها إلى حظيرة الإيمان. وقد تبينت أن سكان كل قرية هناك يعتنقون الدين السماوى بمجرد اعتناق رئيس القرية له وأن رئيس القرية يقبل ذلك عادة مقابل إهدائه ثلاثة خنازير يساوى ثمنها هناك نحو 15 جنيها ولما كان فى منطقتى ألف قرية فيها ألف رئيس فإن هدايتهم جميعا تتكلف 15 ألف جنيه هى التى سأتقاضاها منك لإتمام رسالتى عن

ولم يكن أمام كارترايت غير أن يرضخ لهذه الشروط فبدأ يطارد العظماء بآلته التصويرية على نطاق واسع حتى أكمل الإتاوة التى فرضها الأسقف عليه. وحين سلم إليه المبلغ تقبله هذا شاكرا لشريكه معاونته على استئصال الوثنية من قلب القارة. فأجابه كارترايت متسائلا: «والآن، أحسبنى قد استرددت حريتى منك؟»

فانبرى له الأسقف: «لا تتعجل. فما زالت الصورة فى حوزتى فضلا عن أن فى وسعى إقامة الدليل لدى السلطات على أنك جمعت المبلغ الذى تبرعت به لأسقفيتى بوسائل غير شريفة. ومع ذلك فإنى كما ذكرت لك سيد رحيم ورغم أنك ستظل عبدا لى فإنى سوف أجعل عبوديتك أمرا يمكن احتماله. فهناك عقبتان ما تزالان فى حاجة إلى جهودنا: الأولى أن الرئيس الأعلى لقبائل بوريا بولاجا لا يزال مخلصا لعقيدة أجداده الوثنية. والثانية أن تعداد هذه القبائل لم يصل بعد إلى تعداد قبائل «نيام نيام» وفى وسعك أنت ومساعدتك الحسناء تذليل هاتين العقبتين، فقد أرسلت صورتها إلى الرئيس الأعلى فجن بها حبا وقبل أن يعتنق إيماننا إذا زوجناه منها. أما العقبة الثانية ففى وسعك تذليلها بالإقامة فى بوريا بولاجا حيث سأزودك بعدد كبير من نساء القبائل بحيث تكون مهمتك أن تنجب منهن أكبر عدد من النسل ما بقيت لك القوة على ذلك كى أهدى هذه الأرواح الناشئة إلى حظيرة الدين. وفى حالة ثبوت أى إهمال منك فى تأدية واجبك – كما يظهر من تعداد المواليد فى القبيلة– سوف أبادر فورا إلى إبلاغ السلطات عن نشاطك الإجرامى السابق.

على أننى لن أجعل هذا الحكم عليك مؤبدا فحين تبلغ سن

السبعين سنسمح لك وللحسناء «لاليج» بالعودة إلى انجلترا. والآن دعنى أحذرك من اللجوء إلى العنف للفرار من قبضتى فقد أودعت فى المصرف ظرفا مختوما تقضى تعليماتى بأن يفتح فى حالة وفاتى فى ظروف مريبة وفيه كل المستندات الكفيلة بتدمير مستقبلك. وأخيرا فإنى أتطلع فى شوق إلى اليوم الذى سوف أستمتع فيه بصحبتك فى منفانا المشترك. سعدت صباحا.

ومرة أخرى لم يجد كارترايت مفرا من الرضوخ لهذا الحكم الصارم. وكانت آخر مرة وقع فيها بصرى عليه على ظهر السفينة التى أبحر عليها إلى أفريقيا وكان يودع مساعدته الحسناء وداعا حارا أليما، فقد أجبرها الأسقف على أن تسافر على سفينة أخرى ولم أملك نفسى وقتئذ من الرثاء لحاله لكنى وجدت عزاء له فى كونه ساهم بنصيب مشكور فى نشر رسالة الدين فى تلك الأقطار الوثنية.

■ ■ ■

الفصل السابع



وأثناء توالى هذه الأحداث التى وقعت للضحايا الثلاثة: ابر كرومبى وبوشامب وكارترايت، لم أهمل شأن الزائرة الرابعة من زوار الدكتور ملاكو وأعنى بها «مسز اليركر» التى كان قلقى عليها يتزايد يوما بعد يوم

كان زوجها -مستر اليركر- يعمل مصمما للطائرات وكانت وزارة الطيران تعتمد عليه في هذا الباب باعتباره أخصائيا من أقدر رجالها لا ينافسه فى هذا المضمار غير شخص واحد فقط يدعى «كانتوكس» كان بدوره يقطن ضاحية مورتليك.

وبقدر اتفاق الرجلين فى مهنتهما كان اختلافهما فيما عداها من نواحي الحياة: كان اليركير ذا عقلية علمية محضة لا يتذوق الآداب أو الفنون ولا يتقن الحديث أو يلمع فى مجتمع. على النقيض من منافسه كانتوكس الذى كان ذا ثقافة واسعة ومواهب اجتماعية ملحوظة، حاضر البديهة بارع الدعابة يستطيع أن يؤنس أية جماعة بحديثه الجذاب وتعليقاته اللاذعة وتحليله النافذ إلى الأعماق.

كان الأول قليل الخبرة بالنساء لم ينظر يوما إلى غير زوجته.

بينما كان الثانى ذا عين جائلة ذواقة مستحقا للاستهجان والازدراء لولا فائدته القومية لوطنه التى أرغمت دعاة الأخلاق على التعامى عن نقائصه والتظاهر بالجهل بها، مثلما فعل الانجليز إزاء بطلهم نلسون وعلاقته الشائنة بالليدى هاملتون.

وفى أكثر هذه النواحى كانت مسز اليركر بطبعها أقرب إلى كانتوكس منها إلى زوجها سيما وقد نشأت فى مجتمع يخلط الدعابة بالحكمة ولا يحفل كثيرا بمقاييس الأخلاق والفضيلة التى سادت فى العصر الفيكتورى وفى المقاييس التى كان زوجها شديد الحرص على التزامها. وكان جيرانها فى مورتليك ينقسمون إلى فريقين: فريق يعجب بحديثها الخلاب وفريق يخشى أن تقترن خفتها فى الحديث بتحلل خلقى فى مسلكها الشخصى

فريق، قوامه الكهول المجربون يرتاب فى عفتها ويرثى لزوجها الساذج. وفريق آخر يرثى لحالها هى ويتخيل تعليقات زوجها التافهة الجافة على مائدة الإفطار وهو يتصفح جريدة التايمس المحافظة.

وعلى أثر رؤيتى للزوجة خارجة تترنح من دار الدكتور ملاكو، ثم وقوفى على ما أصاب ضحيته الأولى – مستر ابركرومبى – رأيت من واجبى أن أحذر مسز اليركر من الرجل لكنى لم أجد داعيا لهذا الإجراء حين لمست منها نفورا تاما من كل فكرة اتصال به. ثم عاودنى القلق عندما علمت أنها ومستر كانتوكس يلتقيان أكثر مما ينبغى بالنسبة لامرأة يعتبر هذا الرجل منافسا لزوجها فى عمله. وقد ألمعت إلى هذا المعنى ذات يوم فى حديث لى معها فثارت احتجاجا على الشائعات الكاذبة وأضافت أن كانتوكس رجل لا تقبل أن تسمع كلمة سوء فى حقه وكانت لهجتها غاضبة

إلى حد جعلنى أكف بعد ذلك عن زيارتها فأفقد كل صلة بها.

حتى فتحت صحيفة الصباح ذات يوم فإذا بى أطالع فيها أن طائرة من طراز جديد - وضع تصميمه مستر اليركر - قد احترقت عند تجربتها ومات قائدها فيها. ثم أضافت الصحيفة أن التحقيق الذى قامت به السلطات قد أفضى إلى العثور بين أوراق مستر اليركر على الدليل الذى يثبت أنه ارتكب بعض الأخطاء فى التصميم عامدا لمصلحة دولة أجنبية. فلما اكتشفت وثائق هذه الخيانة العظمى عمد الرجل إلى الانتحار بتناول جرعة من السم.

تلك كانت رواية صحيفة الصباح على أن سوابق الدكتور ملاكو مع الضحايا السابقين جعلتنى أرتاب فى صحة هذه الرواية فبادرت بزيارة مسز اليركر فوجدتها فى حالة أقرب إلى الذهول والرعب منها إلى الحزن. كانت تتوقف عن الكلام فى منتصف العبارة وتبدو كمن تنصت لشئ لا أسمعه ثم تتنبه من شرودها فتسألنى: «ماذا ؟.. ماذا كنا نقول؟» وبرغم قلقى عليها فإنها أبت أن تصارحنى بشئ فوجدتنى عاجزا عن مساعدتها كل العجز.

وفى تلك الأثناء كان مستر كانتوكس ينتقل من مجد إلى مجد بعد أن خلا له الجو بخلاصة من منافسه وصارت الحكومة تعتمد عليه باعتباره أملها الوحيد فى سباق التسلح والصحف تتنافس فى الإشادة بعبقريته وجهوده

وانقضى شهر أو شهران لم يجد فيهما جديد حتى سمعت ذات يوم أن مسز اليركر قد فاضت بها الكأس فهرعت كالمجنونة إلى وزارة الطيران وأصرت على مقابلة الوزير فلما أدخلت إلى مكتبه اندفعت تروى

قصة غريبة بدت له أقرب إلى هذيان مخبولة أودى الحزن بعقلها وكان كل ما فهمه الوزير من القصة أن المرأة تنسب اتهامات غامضة غير معقولة إلى مستر كانتوكس وإلى نفسها. فاستدعى على الأثر طبيبا نفسانيا لفحصها وأيدت نتيجة فحصه أن المرأة قد خولطت فى عقلها. ولما كان مستر كانتوكس رجلا ذا قيمة جوهرية لوطنه فلا يليق أن يوضع تحت رحمة امرأة مخبولة. وهكذا انتهى الأمر بنقل مسز اليركر إلى إحدى المصحات العقلية.

وصادف أن كان مدير المصحة صديقا قديما لى فذهبت لزيارته وذكرت له أننى على علم بظروف حالة مسز اليركر وأنه لو سمح لى بمقابلتها على انفراد فأغلب ظنى أننى سأستطيع اكتشاف مصدر اضطرابها والإرشاد إلى طريقة علاجها.

ووافق الطبيب بعد تردد. فلما انفردت بالمرأة ابتدرتها قائلا: «لست أعتقد أن بك أى اضطراب عقلى. فأنا أعرف الدكتور ملاكو ومستر كانتوكس كما أنى كنت أعرف المرحوم زوجك ولست أصدق أنه ارتكب شيئا مما نسب إليه فى حين أن الدكتور ملاكو ومستر كانتوكس قديران فى اعتقادى على التآمر لتدمير حياة رجل شريف. فإذا كنت مصيبا فى شكوكى ففى استطاعتك الاعتماد على لوزن وتقدير أية معلومات تفضين بها إلىّ باعتبارها حقائق صحيحة وليست أوهام عقل مريض.

فأجابت المرأة فى حرارة وترحيب: «فليباركك الله من أجل هذه الكلمات فهى أول عبارة أسمعها توحى إلىّ بالأمل فى أن يصدق الناس الحقيقة. وما دمت راغبا فى سماع قصتى فسأرويها لك بجميع تفصيلاتها الأليمة دون أن أخفى دورى فيها. على بشاعته ولكن صدقنى أن العذاب

الذى أقاسيه قد طهرنى من الإثم الذى انزلقت إليه ولست أبغى سوى التكفير بقدر طاقتى عما لحق بذكرى زوجى المسكين من لوثة»

ثم شرعت تسرد لى قصتها الرهيبة:

بدأت الحلقة الأولى من المأساة على يد الدكتور ملاكو - كما توقعت - حين فكر مستر اليركر أن يزوره بصحبة زوجته ترحيبا بجيرته فى الحى وتحية لمؤهلاته العلمية التى سمع عنها. ولم تمض على بدء الزيارة دقائق حتى استدعى الزوج بالتليفون كى يرسل إلى وزارة الطيران مستندات هامة كانت فى حوزته بمنزله، فخرج للقيام بهذه المهمة واعدا بالعودة لأخذ زوجته حين يفرغ منها.

وكان دكتور ملاكو قد أدرك بفراسته المعهودة ومن سياق حديثه مع الزوجة مدى الضجر الذى تعانيه فى حياتها مع ذلك الزوج السمج الذى تثير عشرته أعصابها. فراح الشيطان يحدثها عن أزواج يحترفون تصميم الطائرات - مثل زوجها - بعضهم تافه الشخصية سمج الحديث، وبعضهم ظريف جذاب. وأضاف معلقا أن السخفاء منهم هم الذين رزقوا زوجات فاتنات

ثم استطرد الشيطان من هذا - كأنما دون قصد - إلى سرد قصة اثنين متنافسين من المشتغلين بتصميم الطائرات كان قد عرفهما فى بلد آخر غير انجلترا. وكان أحدهما يملأ قلبه الحسد المر لمنافسه الناجح. وزاد من غيرته منه أن ذلك المنافس كان شخصا ثقيل الظل لا يتحدث أو يهتم بشئ يخرج عن حدود مهنته. فى حين كان هو ظريفا لبقا جذاب الحديث. وحين استبد بالحاسد حنقه راح يتودد إلى زوجة غريمه حتى أوقعها فى هواه فشغفت به حبا إلى درجة الجنون. لكنه حرص فى الوقت

نفسه على أن يدعها فى شك من مدى حبه هو لها، إلى أن أضلها هواها ذات ليلة فاعترفت له فى لحظة اشتهاء أنها لن تحجم عن شئ فى سبيل أن تظفر بحبه. عندئذ بدا عليه التردد قليلا ثم قال فى النهاية أن هنالك خدمة بسيطة تستطيع أن تؤديها له إذا أرادت: وهى أن تترقب اليوم الذى يحمل فيه زوجها إلى بيته الخرائط النهائية لتصميم الطراز الأخير للطائرات فإذا نام الرجل وارتفع شخيره تسللت هى إلى غرفة مكتبه فأحدثت بالقلم فى التصميم بعض التعديلات الطفيفة التى سيرشدها هو إليها.

ونفذت المرأة تعليمات حبيبها وحمل الزوج تصميماته إلى وزارة الطيران فصنعت الطائرة الأولى على أساسها. وفى اليوم المحدد لتجربتها ركبها مصمما فخورا ليثبت صلاحيتها ويشرح مزاياها. فلم يكد يرتفع بها فى الجو حتى اشتعلت فيها النار ومات الزوج محترقا مع حطامها. أما المنافس الحاسد فكافأ عشيقته على فعلتها بالزواج منها – بعد مرور فترة الحداد المعقولة طبعا – ذرا للرماد فى العيون.

وختم الدكتور ملاكو قصته بقوله: «وقد تحسبين يا سيدتى أن وخز الضمير قد أفسد سعادة المرأة بحبيبها. لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد كان الرجل على قدر من الجاذبية والشخصية الممتعة بحيث لم تندم لحظة واحدة على الزوج الثقيل الذى ضحت به. وإنما كان هناؤها كاملا لا تشوبه غضة أو شائبة. وما يزال الحبيبان إلى اليوم من أسعد الأزواج الذين عرفتهم»

وعند هذا الحد هتفت مسز البركر مذعورة: «يا إلهى، هل فى الدنيا مثل هؤلاء النساء الشريرات؟» فكان جواب الدكتور ملاكو: «نعم، هنالك فى الدنيا نساء بارعات فى الشر كما أن فيها رجالا يبعثون على الضجر»

وخلال حديث الشيطان كانت مسز اليركر - التي عاشت حتى تلك الساعة حياة عفة وطهر وأن يكن بصعوبة - نهبا لهواجس ملحة ودت لو تقمعها لكنها لم تستطع. كانت قد التقت بمستر كانتوكس في عدة مجتمعات فأبدى في كل مرة اهتماما بها وإعجابا بحديثها وبشخصها وعقلها. لكنها لم تتنبه إلا الآن فقط - خلال حديث الدكتور ملاكو - إلى أنها عقب تلك الاجتماعات لم تكن تملك نفسها من التفكير في مدى ما كانت تكون عليه الحياة من أمتاع ولذة لو كان زوجها هو كانتوكس وليس اليركر. وكان هذا الخاطر يراودها في كل مرة فتقمعه لساعته بحيث ظل مختنقا في أعماقها حتى هذه اللحظة حين فتح له حديث الدكتور ملاكو الباب على مصراعيه وأطلقه من عقاله. وأنه ليطالعها الآن وجها لوجه بغير قناع بحيث تتخيل - بل تكاد تحس - ما سوف تشعر به لو رمقتها عينا كانتوكس بنظرة اشتهاء أو أحاطت ذراعاه بخصرها، أو أطبقت شفتاه على شفتيها. ومع أن هذه الأفكار قد جعلتها ترتعد فزعا فإنها لم تستطع أن تطردها من مخيلتها. فراحت تحدث نفسها: «أن عقلي يكاد يصيبه التبلد والانحلال في صحبة هذا الرجل. وتعليقاته على أنباء الصحف على مائدة الإفطار تكاد تجعلني أصرخ غيظا. وفي المساء حين نشرع في قضاء سهرة فراغ ممتعة بجوار المدفأة يروح مني في النوم. ويرتفع شخيره. أواه !. كم كانت حياتي تكون مغايرة لو قضيتها في رفقة عزيزي أوستاس - كما يحلو لي أن أطلق على مستر كانتوكس في أحلامي على الأقل. كم كنا لنكمل أحدانا الآخر ونكون ثنائيا رائعا. وما أمتع ما كان يبديه عندئذ نحوي من حب عارم، ناري - ولطيف في الوقت نفسه - لا حب ثقيل، سمج»

كل هذه الأفكار والصور تدافعت إلى مخيلتها أثناء حديث الدكتور ملاكو. ولكن في الوقت نفسه كان هناك صوت آخر أقل ارتفاعا

وإلحاحا - وأن تكن له مع ذلك قوته - راح يذكرها بأن زوجها اليركر رجل طيب لم يدخر وسعا فى تأدية كل واجب كان يتنبه إليه. وأنه يضطلع بمهمة ممتازة ويعيش حياة مشرفة. فهل تستطيع هى أن تحذو حذو تلك المرأة الشريرة فى قصة الدكتور ملاكو فتقضى على مثل هذا الرجل بتلك الميتة الأليمة.

ومزقها الصراع بين الواجب والشهوة وتقاذفها تنازع الشفقة والرغبة. حتى نسيت كل شئ عن عودة زوجها المرتقبة ففرت من دار الدكتور ملاكو لا تلوى على شئ ولم تجاوز عتبة الباب حتى سقطت مغشيا عليها.

وفى حمى انفعالاتها المتضاربة وحيرتها حرصت خلال الأيام التالية على تجنب الالتقاء بمستر كانتوكس فى مكان على الأقل حتى يستقر عزمها على قرار فى شأن الاتجاه الذى تنوى أن تسير فيه. ولكن لم تمض أيام حتى وقعت الواقعة حين جاءها زوجها يخطرها بأنه سوف يدعو غريمه ومنافسه مستر كانتوكس لتناول الشاى فى بيته جريا على سنة المتنافسين المهذبين فى هذا العصر

ولم يكن ثمة مفر. وجاء مستر كانتوكس. وبعد أن جالسه مضيفه فترة من الوقت اضطر للانزواء فى غرفة مكتبه لإنجاز عمل عاجل تاركا زوجته تنوب عنه فى الترحيب بالضيف ومؤانسته. فلم يكد الزوج ينسحب من المكان حتى أحست الزوجة بالحرج والاضطراب لكن كانتوكس لم يدع هذه الفترة تطول، فقال يخاطب المرأة: «يا عزيزتى أماندا - إذا سمحت لى بمخاطبتك باسمك المجرد - لقد طالما اشتقت إلى هذه الفرصة منذ التقينا لأول مرة فى تلك الحفلة السخيفة التى لم يخفف وطأتها سوى

وجودك. وهل فى هذه الضاحية المقفرة مخلوقة غيرك يستطيع المرء أن يجاذبها حديثا شائقا ؟. وأنى لآمل أن تجدى بدورك فىّ - كما أجد فيك - شخصا متمدينا قديرا على التحدث باللغة التى يؤثرها كلانا»

وكانت بقية جلستهما أحاديث منوعة فى الكتب والموسيقى والصور، وسواها من الموضوعات التى كان مستر اليركر يجهلها والضاحية التى لم تسمع بها من قبل. ونسيت ربة البيت فى أحاديثها مع ضيفها كل تحفظ فلما نهض لينصرف كانت عيناها تلمعان ببريق غريب. فدعاها لتشريفه بزيارتها يوما كى ترى محتويات بيته من التحف واللوحات والكتب التى يمتعه أن يعثر على امرأة تفهمها وتقدرها.

وترددت برهة ثم غلبتها نزوة طائشة فقبلت. وتحدد موعد يكون فيه الزوج حتما فى مكتبه. وفى الموعد كانت الزوجة تدق جرس بابه فى عصبية. وكان هو الذى فتح لها فأدركت من أول وهلة أنهما وحيدان فى المسكن. ثم قادها الرجل إلى غرفة مكتبه ولم يكد يغلق الباب حتى .. أخذها بين ذراعيه.

ووقعت الزوجة فى الخطيئة ..

وراح الشيطان يضحك ويقهقه عاليا..

■ ■ ■

الفصل الثامن



وحين انتزعت نفسها منه أخيرا وقد اقترب موعد عودة العزيز اليركر إلى البيت أحست التعسة أن صلتهما لن يكتب لها الاستمرار – لأكثر من مغامرة عابرة – إلا إذا دعمها رباط أقوى وأمتن من مجرد شهوة الجسد. فقالت لصاحبها وهى تعانقه: «أوستاس، لكم أحبك. وما من شئ لا أفعله من أجلك راضية إذا كان فيه لك المزيد من السعادة»

فأجابها: «يا حبيبتى، لا أستطيع أن أثقل عليك بمشكلاتى فأنت بالنسبة لى بمثابة شعاع الشمس وضياء النهار ولا أود أن أربطك فى فكرى إلى عجلة الكفاح اليومى من أجل العيش»

لكنها استطردت ملحة: «أواه يا حبيبى، لا تنظر إلى هذه النظرة فلست مجرد فراشة جميلة – أو بلبل صغير مغرد كما يحلو لزوجى أن يطلق علىّ – وإنما أنا امرأة ذات ذكاء واقتدار استطيع مشاركة الرجل كفاحه الشاق وكفانى أن أعامل فى البيت باعتبارى لعبة للهو فحسب. كلا، ليس هكذا أريدك أنت أن تعاملنى يا حبيبى»

وبدا على مستر كانتوكس مظهر التردد لحظات ثم كأنما حزم أمره أخيرا. فسمعته مسز اليركر– وقد تملكتها نوبة رعب – يردد نفس

الطلب الذى جاء على لسان الدكتور ملاكو فى قصته المزعومة طلب إليها أن تضيف إلى تصميمات زوجها للطائرات بعض التعديلات الطفيفة التى سيرشدها إليها وبذلك تسدى إليه وإلى نفسها خدمة كبرى

وأجابته دون وعى: «سوف أفعل. ما عليك إلا أن ترشدنى» ثم اندفعت من بيته لا تلوى على شئ

كانت كلمات كانتوكس صدى رهيبا للعبارات التى وردت فى قصة الدكتور ملاكو. وأكملت الأيام التالية بقية الصدى فتكررت خطوات التنفيذ ومراحله خطوة خطوة. حتى جاءها زوجها ذات يوم يبشرها مزهوا بأن الطائرة الجديدة التى وضع تصميمها قد تم صنعها وسوف تجرب فى الغد

ومن هنا بدأت الحقيقة تختلف عن قصة الدكتور ملاكو: فلم يقم اليركر نفسه بتجربة الطائرة وإنما تولى ذلك عنه أحد الطيارين فمات محترقا حين اشتعلت فيها النار.

وعاد اليركر إلى بيته فى حال من الفجيعة واليأس لا يوصف. وجاء رجال البوليس فى أعقابه فوجدوا بين أوراقه مراسلات تثبت عليه الخيانة العظمى والاتصال بدولة أجنبية وأدركت مسز اليركر لتوها أن هذه المستندات مزيفة ومدسوسة على زوجها بمعرفة حبيبها أوستاس لكنها أمسكت لسانها عن الكلام. حتى بعد أن تناول زوجها السم ومات.

وإذ خلا الجو لكانتوكس - بغير منافس - بدا نجمه يرتفع فى تقدير الشعب يوما بعد يوم ومنحه الملك أرفع وسام فى الدولة تقديرا لكفاءته. أما بالنسبة لمسز اليركر فقد ظل بابه مغلقا فى وجهها. وحتى حين كانا يلتقيان فى قطار أو شارع كان هو يكتفى بالتلويح لها محييا من بعيد.

أنها فى نظره قد أدت مهمتها وانتهى الأمر. وتحت وطأة هذا الاحتقار انطفأت عاطفتها نحوه وماتت. فأعقبها ندم ووخز ضمير مرير لا يحتمل. فى كل مناسبة كانت تسمع صوت زوجها الفقيد يردد سخافاته العذبة التى اعتبرتها أثناء حياته كريهة لا تحتمل. عندما كانت تعود من جولاتها الليلية التى تحاول بها الخلاص بعض الوقت من عذاب أفكارها كان يخيل إليها كأنها تسمع صوت زوجها يقول لها: «لا تخاطرى بالخروج فى هذه الليالى التى يخيم عليها الضباب يا أماندا فهى لا تناسبك. أنها لم تجعل للنساء المراهقات الرقيقات أترين شحوب وجنتيك ؟. إن كفاح الحياة الشاق إنما خلق للرجال وينبغى علينا أن نحمى كنوزنا الصغيرة من جميع المتاعب والاضطرابات التى تنغص حياتنا نحن

وفى كل لحظة وسط أحاديثها مع الجيران أو أثناء شرائها الحاجيات من الأسواق أو فى القطار كانت تسمع على الدوام عباراته التافهة تهمس فى أذنيها حتى لم تعد تستطيع أن تصدق أنه غائب عنها حقا وأنها لتدير بصرها مسرعة حولها فيسألها الناس عما بها. وعندئذ يتملكها خوف رهيب لا قبل لها بوصفه.

والصوت الهامس يزداد إلحاحا عليها كل يوم والذكريات العذبة تمعن فى تعذيبها وفترات الراحة من هذه الكوابيس تقل رويدا رويدا حتى تتلاشى. وأخيرا لم تعد تحتمل. كان التكريم السامى لمستر كانتوكس بمثابة القشة الأخيرة. فاندفعت من البيت كالمخبولة إلى حيث حاولت أن تروى مأساتها لمن بيدهم الأمر. لكنهم لم يسمحوا لغير جدران المستشفى الصامتة أن تسمع المأساة.

وعلى أثر سماعى هذه القصة المخيفة تحدثت إلى مدير المستشفى

وإلى رؤساء اليركر فى وزارة الطيران تحدثت إلى كل إنسان توسمت فيه احتمال أن يسدى خدمة للأرملة المسكينة. لكنى لم أجد مستمعا واحدا يصغى إلى قصتى كان جوابهم جميعا يدور حول هذا المعنى: «كلا، إن سير كانتوكس رجل يؤدى للوطن خدمة خطيرة لها قيمتها ولا يسعنا أن نسمح لاسمه بأن تلطخه الشائعات. فلولاه لما استطعنا أن نقف على قدم المساواة مع مصممى الطائرات الأمريكيين ولولاه لتفوقت الطائرات الروسية على طائراتنا. وقد تكون القصة التى ترويها صحيحة ولكن سواء كانت صحيحة أم زائفة فإنه ليس مما يتفق والمصلحة العامة أن تعرف. لذلك فنحن نطالبك بأن تمسك لسانك»

وهكذا بقيت مسز اليركر فى سجنها تضمحل يوما بعد يوم بينما كان مستر كانتوكس ينتقل من مجد إلى مجد ومن ثراء إلى ثراء.

كان فشلى فى مد يد المعونة إلى مسز اليركر سببا فى اضطراب وبلبلة فكرية شديدة أصابتنى. فقد رحت أسائل نفسى: «أيمكن حقا أن يكون جميع أولئك الساسة والأطباء الذين انتقيتهم من أرفع طبقات الأفراد فى مجتمعنا المفروض أنه مهذب مستعدين لأن يتركوا هذه الأرملة المسكينة – تتعذب وتُرمى بالجنون فى حين يقفز المجرم الحقيقى المسئول عن مأساتها من مجد إلى مجد؟»

وامتلأت نفسى مقتا وكراهية للجنس البشرى. وتطرقت بى أفكارى فى تلك الساعة الكئيبة إلى الدكتور ملاكو فحدثت نفسى: «إن الدكتور ملاكو هو ملك الدنيا. لأن فيه وفى عقله الخبيث وذكائه المدمر تتجمع وتتركز كل حقارة البشرية وقسوتها وكل ذلك الحنق الأعمى للبشر الأقزام الذين يتطاولون إلى أن يكونوا عمالقة. إن الدكتور ملاكو رجل

شرير ذلك أمر مفروغ منه ولكن لماذا كان ناجحا في شره؟ لأن في قلوب الكثيرين من الذين يبدون فى طهارة الملائكة يعربد الشوق إلى الخطيئة بملذاتها ومتعها والرغبة فى السيطرة والتدمير. وقد أدرك الخبيث ذلك فخاطب هذه النزعات الخفية فى بنى الإنسان. وإليها ترجع قوته المخيفة »

واستطردت فى تفكيرى: «إن الكون يكون أجمل وأعذب لو خلا من البشر. فحين يلمع ندى الصباح كالماس فى ضوء شمس الصباح فى يوم من أيام سبتمبر، ترى جمالا ونقاء باهرا فى كل حشيشة من حشائش المروج. ومن البشاعة حقا أن تقع على هذا الجمال أعين تلوثها الخطيئة فتلوث بدورها جمال الطبيعة بمطامعها القاسية الخبيثة. ولست أفهم كيف يصبر الله الذى يرى كل ذلك الجمال على ضعة وحقارة البشر الذين يتباهون فى قحة وتجديف بأنهم قد خلقوا على مثاله وصورته »

وكانت أبحاثى العلمية قد هدتنى إلى طرق عدة لإنهاء الحياة البشرية. فلم أستطع إلا أن أحس بأن من واجبى أن استكمل بحث إحدى هذه الطرق حتى أبلغ بها درجة الكمال. وبدت لى أسهل الطرق التى اكتشفتها على الإطلاق طريقة يمكن بها التوصل إلى جعل مياه البحار والأنهار تغلى فيموت البشر من الظمأ وصنعت جهازا توخيت فيه أن يحقق هذا الغرض فى الوقت الذى يروق لى

شئ واحد عاقنى عن تنفيذ خطتى: هو إشفاقى على الأسماك التى فى البحار من أن تموت حين تغلى مياهها. ولم يكن فى قلبى يؤمئذ أى حنق على هذه المخلوقات اللطيفة المسالمة حتى جرنى الحديث يوما مع أحد علماء الأحياء المائية إلى هذا الموضوع فقال لى الرجل جادا: «لا تشغل قلبك بالإشفاق على الأسماك فإن شرورها لا تقع تحت حصر:

أليست تأكل بعضها البعض وتهمل صغارها إهمالا إجراميا ؟. ثم أليست تمارس تلك العادات الجنسية الشاذة التى يعتبر ارتكاب البشر إياها خطيئة مميتة ؟. لست أرى أن ضميرك من حقه أن يتحرك احتجاجا على قتل الحيتان المفترسة مثلا »

وقادتنى هذه العبارات إلى خليط من الخواطر والأفكار، إذن فليس الإنسان وحده الذى يمتلئ قلبه خبثا وشرا. وإنما الشر لابد جزء من الحياة، الحياة الحيوانية على الأقل التى لا تعيش إلا على افتراس بعضها البعض. الحياة ذاتها إذن شر ولو ماتت جميعا واختفى كل أثر لها من الكون فصارت الأرض كوكبا ميتا كالقمر لغدت جميلة وبريئة مثله

وهكذا عكفت على استكمال أبحاثى فى صبر وتكتم بالغين. وبعد فشل متكرر توصلت أخيرا إلى صنع جهاز يجعل نهر التيمس يغلى فى البداية ثم يتبعه بحر الشمال فالمحيط الأطلنطى، فالهادى، وأخيرا المحيطات القطبية المتجمدة. فإذا تم ذلك ارتفعت حرارة الأرض شيئا فشيئا، وتزايد ظمأ البشر إلى درجة الجنون فالموت.

وعندئذ - تطرقت بى أفكارى - لا تبقى فى الكون خطايا على الإطلاق

وبمجرد فراغى من تركيب جهازى أوصلته بساعة تحدد موعد سريان مفعوله. وفى الساعة العاشرة من صباح أحد الأيام ضبطت الساعة على وقت الظهر تماما. ثم انطلقت لزيارة الدكتور ملاكو.

واندهش الرجل لرؤيتى فقد كان يعلم أن نواياى نحوه ليست ودية - على الأقل - فاستقبلنى متسائلا فى خبث عن سر تشريفى إياه بالزيارة؟ فأجبته على الفور: « ليست هذه مجرد زيارة اجتماعية عادية ومن ثم فمن

العبث أن تقدم لى كأسا من الويسكى ومقعدا مريحا فإنى لم آت لأتبادل معك ثرثرة مرحة. وإنما جئت لأقول لك بإيجاز أن ملكك قد انتهى وأن سلطانك على عقول وقلوب التعساء من البشر الذين أوقعهم سوء حظهم فى قبضتك سوف يتلاشى بعد فترة وجيزة نتيجة لخطة محكمة لا تقل ذكاء وجرأة عن خططك وإن امتازت عليها بأنها تستهدف هدفا نبيلا. ذلك أنى – أنا العالم المتواضع الذى لم تكن تقيم له وزنا والذى فشلت كل جهوده فى منع المآسى التى تسببت أنت فيها. قد توصلت أخيرا إلى وسيلة تمكننى من وضع حد لأطماعك ففى معملى الآن ساعة تدور غير وانية حتى إذا التصق عقرباها عند الظهيرة تماما بدأ العمل جهاز خاص سوف يقضى فى خلال أيام معدودة على كل أثر للحياة على هذا الكوكب. وبالتالى يقضى على حياتك أنت »

فقاطعنى الدكتور ملاكو: « مرحى، مرحى، يا لها من لهجة مسرحية شائقة لو لم تكن فى الصباح الباكر لحسبتك مخمورا. وإذن فلن يبق إلا أن أرتاب فى سلامة قواك العقلية. ولكن إذا كنت ترى القصة ممتعة حقا فإنى على استعداد لأن أتسلى بسماعها »

– جميل منك أن تسخر على هذا النحو ولكن لعل السخرية هى كل ما بقى لك. فلن يمضى وقت وجيز حتى تكف عنها وتبدأ رحلتك إلى العدم. وعندئذ سوف تعترف مضطرا أنك قد غلبت على أمرك وأن لواء النصر الكامل إنما عقد لى أنا.

– مهلا، مهلا وكفانا من هذه اللهجة التمثيلية. وإذا لم يكن باقيا على حياتنا غير ساعات معدودات فخير ما نقضيها فيه أن نتحدث حديثا علميا نافعا. فهات ما عندك واشرح لى خطتك لعلنى أفيدك فيها برأى

وكنت واثقا من خطتى فلم أر بأسا فى أن أطلعه عليها سيما ولم يبق على موعد سريانها غير ساعة وبعض ساعة. لكن فألى خاب حين اكتشف اللعين فى الخطة ثغرة هامة أقنعنى بها وهكذا قضى فى لحظات على آمالى التى هدهدتها أيام. وأخيرا قال لى شامتا: «والآن يا صديقى المسكين لقد صدق ظنى: وحين تدق الساعة الثانية عشرة سوف ينفجر جهازك دون نتيجة. أما البحار فستظل باردة كما هى»

وإذ أثبت لى كلامه بالأدلة العلمية انطفأت حماستى وآلمتنى الهزيمة فتهيأت للانصراف لولا أنه استوقفنى قائلا: انتظر قليلا، لا تحسب أن كل شئ قد ضاع وانتهى. ففى وسعنا أن نعمل متعاونين بعد أن عملنا متحاربين. وقد اهتديت أثناء نقاشنا إلى طريقة لمعالجة الثغرة التى فى جهازك وبذلك يمكننا أن نمضى فى تنفيذ خطتك أنك قد تصورت أن فناء العالم سوف يحزننى ولكن يبدو أنك لم تفهم من أفكارى غير القشور الخارجية. ولما كنا سنعمل معا من أجل هدف واحد فلست أرى بأسا فى أن أفتح لك قلبى:

«أنك توهمت أننى سعيت إلى المال والنفوذ والمجد طمعا فيها لذاتها. فى حين أنى طالما استهدفت من ورائها أهدافا وغايات مجردة وغير ذاتية. وأنت تحسب أنك تمقت الجنس البشرى بينما لو وزن المقت الذى فى طرف أصبعى نحو هذا الجنس لوجد أشد وأقوى ألف ضعف مما ينطوى عليه جسمك بأكمله. وأن لهيب الكراهية الذى يشتعل فى أعماقى لكفيل بأن يحيلك فى لحظات إلى كومة من الرماد. فإنك لا تملك القوة ولا الصبر ولا العزيمة كى تعيش طاويا قلبك على الحقد الذى فى قلبى أنا. ولو اهتديت من قبل إلى ما هديتنى إليه الآن من طريقة إبادة الجنس البشرى فهل تحسبنى كنت أتردد لحظة؟ إن الموت كان دائما هدفى

وغايتي وقد كنت أقذف إليه بضحاياى من الأفراد التعساء - الذين أثاروا شفقتك الحمقاء - لا لشئ إلا لأنى كنت جاهلا بالطريقة التى تقتل البشر بالجملة بل إنى لم أدخر وسعا فى هذا السبيل بقدر طاقتى ولعلك لا تعلم أننى فى الوقت الذى كنت أمد فيه كانتوكس بوسائل الفتك بالناس بطائراته كنت أمد علماء الدول المعادية بأسلحة أخرى مضادة تزيد نار الحرب اشتعالا وتطيل أجلها كى تفنى أكبر عدد من بنى الإنسان. نعم، إن الانتقام دينى وديدنى وحافز حياتى الأوحد. الانتقام لا من فرد أو أفراد بعينهم وإنما الانتقام من هذا الجنس الشرير بأكمله الذى أنتمى لسوء حظى إليه.

وقد اعتنقت هذا الهدف منذ صباى الباكر من فرط تعاسة الظروف العائلية التى نشأت فى جوها: كان أبى أميرا الروسيا وأمى خادمة فى بنسيون بمدينة لندن وقد هجرها أبى قبل أن أولد واشتغل ساقيا فى مطعم بنيويورك - وهو يستمتع الآن بضيافة سجن « سنج سنج » - لكن أمره لا يهمنى كثيرا فإنه المسئول عن كارثة أمى التى أدمنت الخمر على أثر هجره إياها بحيث لم تكن تفيق منها إلا نادرا وهكذا فقدت عملها وتشردت. فعشت سنوات صباى جائعا لا أكاد أجد ما يسد رمقى. وبمجرد أن صرت قادرا على الحبو تعلمت أن أنبش أكوام القمامة بحثا عن لقمة تائهة أو نفاية بطاطس أو أى شئ يخرس صراخ بطنى الجائعة وكانت أمى تضربنى من أجل جولاتى هذه، وحين تتذكر جوعى تغلق على الباب وتخرج على وجهها إلى أحد بيوت الدعارة. ثم تعود منها محطمة ثملة فتضربنى حتى تدمى جسدى ويغمى علىّ كى تتخلص من صراخى.

وذات يوم وكنت فى السادسة، فيما كانت تجرنى فى الطريق وهى مخمورة لا تقوى على المسير طلبت طعاما. فبدأت تنهال على ضربا كالمعتاد وفى محاولتى الدفاع عن نفسى دفعتها عنى بكل قوتى فاختل

توازنها وسقطت على الأرض. وفى تلك اللحظة كانت سيارة نقل كبيرة تعبر الطريق فقضيت عليها.

وصادف أن وقع علىّ ساعتئذ بصر سيدة محسنة كانت مارة فى الطريق فلما رأتنى وحيدا فى أعقاب الكارثة أدركتها الشفقة على. فأخذتنى إلى بيتها حيث نظفتنى وأطعمتنى وكستنى. وكان البؤس الطويل قد شحذ ذكائى فتعلمت كيف أخدع المرأة بالتظاهر بالطيبة والمسكنة حتى أدخلت فى روعها أننى نموذج للخلق القويم. وهكذا تبنتنى وعلمتنى وصرت أتملقها وأكسب رضاءها بالإكثار من الصلاة أمامها. والإشادة بخالقى فى كل مناسبة وفقا لتعاليمها – وإن انطوت نفسيتى فى الوقت نفسه على الكثير من مشاعر الحنق الأسود على الأقدار التى جاءت بى إلى هذا العالم.

وأخيرا، كنتيجة لرضى المرأة عنى، انتهت فرصة بلوغى الحادية والعشرين فكتبت وصية أوصت لى فيها بكل ثروتها وتستطيع أن تستنتج أنها لم تعش طويلا بعد كتابة تلك الوصية.

وبعد موتها صارت حياتى رغدة ميسرة. لكنى لم أستطع مع ذلك أن أنسى – للحظة واحدة – تلك السنوات الباكرة المريرة من حياتى ولا قسوة أمى، واضطهاد جيرانى والجوع والوحدة واليأس الأسود الذى اكتنف حياتى. فقد ظلت هذه الذكريات تسمم كيانى برغم ظروفى الحاضرة السعيدة. من فرط ما تغلغلت فى ألياف جسمى وأعصابى ووجدانى.

وهكذا تجدنى الآن لا ينجو إنسان على ظهر البسيطة من كرهى وحقدى وشوقى إلى أن أراه يتعذب ويقاسى أفظع ما يمكن أن يقاسيه البشر. ولقد أطمعتنى الآن فى أن أرى جميع سكان المعمورة يظمأون إلى حد الجنون ويعانون أقسى ميتة واحتضار. فيا له من مشهد جميل ولو

كنت أملك الشعور بعرفان الجميل لأحسسته نحوك الآن لكن القدرة على الإحساس بمثل هذه المشاعر قد ماتت فى منذ بعيد قبل أن أبلغ السادسة من عمرى

والآن، تستطيع أن تعود إلى معملك لتشاهد جهازك ينفجر انفجاره العقيم فى حين أن انتصارك الذى منيت به نفسك على سوف يكون من نصيبى أنا. فلسوف أتولى تنفيذ خطتك بعد سد الثغرة التى فيها. وفى الوقت الذى ستقاسى فيه أنت عذاب الموت ظمأ سأكون أنا قد اخترت لنفسى ميتة سهلة لا ألم فيها، بمجرد إدارتى عجلة الجهاز الذى سوف يفنى جميع الأحياء.

وفيما هو يتكلم كانت الأفكار تتسابق فى مخيلتى مختلطة متضاربة وقد أصيبت برد فعل مفاجئ أخذت أحدث نفسى: «أما أن هذا الرجل شرير زنيم فهذا ما لا شك فيه. ولكن ما دام هو يبغى إفناء العالم فلابد أن إفناءه أمر شرير. ينبغى أن أحول دونه بكل قواى. وفجأة بدأ العالم الذى كنت أكرهه، يبدو لى جميلا بدأت أحس أن كراهية الجنس البشرى، التى كانت فيه نزعة متأصلة، إنما كانت بالنسبة لى جنونا عابرا. ومن ثم اعتزمت أن أفسد عليه انتصاره الذى أخذ يتباهى به ويزهو.

وفى تلك اللحظة أطل الشيطان من النافذة وهو يتمتم. كم من البيوت الجميلة ترى من هنا. إن كل بيت منها سوف يتحول بعد أيام إلى جحيم مروع، يفر منه سكانه كالمخبولين صارخين مولولين إننى لن أراهم لكن صورتهم سوف تنطبع فى خيالى وأنا أموت ميتتى الهادئة قبلهم بساعات فتمتعنى فى لحظاتى الأخيرة متعة معدومة النظير

وفيما كان يتكلم كان ظهره إلى. فومض فى ذهنى خاطر. بادرت

إلى تنفيذه فورا: أخرجت من جيبى المسدس الذى كنت قد حملته احتياطا للطوارئ. وقلت وأنا أسدده إلى ظهره: « كلا، هذا لن يحدث » وفى اللحظة التى استدار فيها إلى محنقا. أدريته قتيلا.

ثم مسحت المسدس من أثار بصماتى ولبست قفازى وضغطت أصابع القتيل على المسدس حتى انطبعت بصماته عليه. ثم ألقيته إلى جواره على الأرض. وهرعت من فورى إلى الآلة الكاتبة فكتبت عليها رسالة صغيرة بلسان الدكتور ملاكو يعترف فيها بانتحاره ثم مضيت متخفيا إلى دارى.

■ ■ ■

الفصل التاسع



على أثر وضع نهاية لحياة الشيطان الأرضى الدكتور ملاكو أحسست براحة عميقة وكأنى تخففت من عبء ثقيل وقضيت الأشهر التالية أنعم بنوم هانئ طويل لم أعرفه منذ حل الدكتور ملاكو فى ضاحيتنا فعاث فيها فسادا

وفى هذه الأثناء التقيت بامرأة جذابة ذكية مولعة بالتحلي النفسى راقت فى ناظرى. فلم ألبث أن تزوجتها وحسبت بذلك أن سعادتى قد اكتملت لكن أفكارا مختلفة من ذكرياتى تجربتى الأخيرة الرهيبة كانت لا تفتأ تعاودنى بين الحين والآخر فتلحظ زوجتى - بفراستها وذكائها - شرودى الطارئ فإذا سألتنى عن سببه اختلقت لها عذرا كاذبا يتركها حائرة بين التصديق والارتياب.

لكن هذه النوبات تزايدت بمرور الأيام لاسيما حين بدأت تتراءى لى فى خيالى صورة الدكتور ملاكو فى أوضاع مختلفة مفزعة. وتلاحق ظهور خيال ذلك الشيطان اللعين لى فى اليقظة والمنام، حتى صرت أتوهمه متجسدا أمامى بسترته السوداء وشعره اللامع وذات مرة تقدمت منه محاولا لمسه كى أقنع نفسى أنه مجرد خيال ولكن فى تلك اللحظة يبدو أن نسمة هواء هبت على وجهى فحسبتها أنفاسه تلفحنى، وصرخت

مفزوعا ودخلت زوجتى لتجدنى شاحبا متداعيا أكاد أسقط مغشيا على والعرق يتصبب من جسمى

وخيل إلى أننى لو اعترفت لأراحنى الشبح من ظهوره وانقطع عن زيارتى وألحت هذه الفكرة على ذهنى وتفاقم تأثيرها على كلما عيرنى الشبح بجبنى ونذالتى وتحدانى أن أفخر بفعلتى ما دمت أعتقد أنها كانت صوابا.

وذات ليلة صحوت من نومى فى أعقاب كابوس من هذه الكوابيس وأنا أصرخ: « أنا الذى فعلتها .. أنا الذى فعلتها » فسألتنى زوجتى بدهشة: «فعلت ماذا؟»

قتلت الدكتور ملاكو أنك قد حسبت نفسك تزوجت من عالم تافه لا هم له غير معمله لكنك واهمة فلقد تزوجت رجلا ذا شجاعة خارقة وعزيمة نادرة رفعتاه إلى أن ينفرد دون سكان الضاحية جميعا بتعقب ذلك الشيطان المريد حتى أورده حتفه. لقد قتلت الدكتور ملاكو وأنا فخور بذلك. فكان جواب زوجتى على ما حسبته هذيانا منى: «ألا ترى أنه يحسن بك أن تعاود النوم ؟. وإذ ذاك صحت غاضبا وثرت ثورة عنيفة لعدم تصديقها إياى. لكن ثورتى زادتها خوفا منى وارتيابا فى عقلى فلما جاء الصباح رأيتها تتجه إلى التليفون

والآن، وأنا أطل من نافذتى أرى حارسين يخفران الباب وطبيبا نفسانيا مشهورا يجئ لفحصى. إننى أرى فى انتظارى نفس المصير التعس الذى فشلت فى إنقاذ مسز اليركر منه. أرى أمامى سنوات طويلة موحشة من الوحدة والعزلة عن الناس. شعاع واحد ضئيل من النور يثقب ظلام مستقبلى: أن عادة المصحات العقلية قد جرت على السماح لأحسن

النزلاء وأحسن النزيلات مسلكا. باللقاء مرة كل عام في رقصة مشتركة تحت حراسة الرقباء. وأذن فسوف ألقى مسز اليركر العزيزة يوما كل عام. وعندئذ سوف نتساءل كلانا. ترى هل في الدنيا بأسرها غير شخصيين اثنين عاقلين.

■ ■ ■

لماذا نخشى الموت ؟



هناك طرق مختلفة يمكن أن نواجه بها الخوف الغريزى الكامن في نفوسنا من الموت فنحن قد نحاول أن نتجاهله فلا نذكره إطلاقا ونسعى دائما لكى نحول أفكارنا فى اتجاه آخر كلما لاح شبحه أمامنا. وقد نقف فى وجهه متعمدين التهوين من شأنه بالتأمل والتفكير فى قصر الحياة البشرية ليولد ذلك في نفوسنا احتقارا لسلطان الموت. وهكذا ما فعله شارل الخامس في صومعته بعد أن اعتزل الحكم. ومن الناس من يغالى فى هذا فيحتفظ فى مخدعه بصندوق من صناديق الموتى.

ويروى عن أستاذ بجامعة كامبردج أن هوايته المفضلة كانت أن يخرج إلى الحدائق فى أوقات فراغه ومعه فأس صغيرة يحفر بها الأرض لإخراج بعض الديدان حيث يأخذ فى تقطيعها قائلا بصوت مرتفع: «هكذا أقضى على ديدان الأرض قبل أن تلتهم جسدى»

وهناك طريق ثالث يسلكه كثيرون لهذا الغرض وهو أن يقنع كل منهم نفسه بأن موته لا يعنى نهايته وإنما هو خطوة إلى حياة أفضل.

تلك هى الفلسفات الثلاث التى ترجع إليها اتجاهات أكثر الناس إزاء حقيقة الموت المؤلمة. ومهما يكن من أمر فإن لكل من هذه

الاتجاهات عيوبها كما أن لها مزاياها. فالواقع أنه لا فائدة مطلقا فى محاولة بعض الناس تجنب التفكير في موضوع جوهرى كالموت تذكرنا به الشواهد المحيطة بنا فى كل يوم بل فى كل لحظة. وقد تستطيع أن تحول بين الطفل فى سنيه الأولى وبين إدراك حقيقة الموت الرهيبة ولكنه لم يلبث قليلا حتى يدركها حينما يصطدم بها بسبب وفاة قريب أو صديق أو جار. ولا شك أن الصدمة تكون عميقة الأثر إذا لم يكن متهيئا لها.

أما مداومة التفكير فى الموت فلا تقل ضررا عن تجاهله. ومن الخطأ إذن أن نحصر تفكيرنا فيه ما دام ذلك يمكن أن يؤدى إلى نتيجة مفيدة لأننا لا نستطيع أن نمنع عنا الموت. هذا إلى أن مثل هذا الاتجاه يقلل من اهتمامنا بغيرنا من الناس وبما يجرى حولنا من أحداث فى حين أن هذا الاهتمام ضرورى لاحتفاظنا بعلاقاتنا مع الآخرين وبسلامة تفكيرنا نفسه.

إن الخوف من الموت يجعل الإنسان يحس أنه عبد أسير لقوى خارجية ولو أنه استطاع التغلب على خوفه من الموت من طريق استغراقه فى التأمل فيه لكف عن هذا التأمل فاستمراره فيه دليل على أنه لم يتحرر من ذلك الخوف. وإذن فهذه الطريقة ليست خيرا من الطريقة الأولى

أما الإيمان بأن الموت طريق إلى حياة أفضل فإنه ينبغى – من الناحية المنطقية – أن يبدد خوف الإنسان من الموت وأن يحفزه إلى عدم المبالاة بالمرض بل يحفزه إلى الترحيب به. على أنه من حسن حظ الأطباء أن هذه العقيدة لا تؤدى إلى هذه النتيجة إلا فى حالات نادرة ذلك لأن المؤمنين بالحياة الأخرى بعد الموت ليسوا فى الواقع أقل خوفا من المرض أو أكثر شجاعة فى صراعهم معه من أولئك الذين يتصورون أن

فى الموت نهايتهم. وقد سئل أحد رجال الدين المعروفين وهو يتناول العشاء فى حفل عما ينتظره بعد الموت فأجاب بأنه يعتقد أنه سينعم بحياة خالدة فى الفردوس ثم أضاف إلى ذلك أنه لا يحب أن يتكلم فى مثل هذا الموضوع المحزن. ويؤخذ من هذا أن العقيدة الدينية تمكن فى منطقة الفكر الواعى فقط، ولذلك قلما تفلح فى تكييف الاتجاهات الغريزية فى العقل الباطن. هذا إلى أن هذه العقيدة التى تقوم على الإيمان كثيرا ما تختلط بها فى نفس صاحبها عناصر من الشك والقلق

إن تهيئة الشباب لمواجهة الموت على أسس نفسية سليمة يجب أن تحقق ثلاثة أهداف يصعب جدا أن نمزجها معا

وأول هذه الأهداف ألا ندعهم يحسون أن الموت موضوع لا نريد أن نتكلم عنه أو لا نحب أن نشجعهم على التفكير فيه. ذلك لأننا إن أوحينا إليهم بهذا الإحساس فسنحملهم على الاعتقاد بأن هناك سرا نحاول أن نخفيه عليهم وبذلك نغريهم من حيث لا نريد بالتفكير فى هذا الموضوع رغبة فى كشف ذلك السر

والهدف الثانى، أنها ينبغى أن نحول بينهم وبين الإسراف فى التفكير فى موضوع الموت. لأن ذلك يؤثر فى كفايتهم وتطورهم ويؤدى بهم إلى اتجاهات ليست فى مصلحتهم ولا مصلحة المحيطين بهم.

أما الهدف الثالث فهو ألا نأمل فى نجاح أى فلسفة عن الموت عند أى شاب من طريق العقل الواعى أو نشر العقائد التى لا يمكن أن تتسلل إلى العقل الباطن.

ولكى نحقق هذه الأمور ينبغى أن نتبع طرقا تختلف باختلاف تجارب الطفل أو الشاب. فإذا لم يكن الطفل قد لمس لوعة الموت من

قرب بفراق عزيز عليه فيسهل أن نعرفه بأن الموت مصير محتوم على الجميع وأنه ليس مفزعا. أما إن كان الطفل قد فقد أخا أو أختا وشهد سيطرة الحزن على والديه فإن من الأفضل بل من الضرورى أن يعرف سبب هذا الحزن لتقوى بذلك معرفته بما ينطوى عليه قلبا والديه من حب فطرى له ولأخوته.

هذا إلى أن نجاح الوالدين فى إخفاء حزنهما على طفلهما قد يشعره بأنهما لن يهتما لموته هو أيضا ومثل هذا الشعور قد يوقعه فى أمراض وعلل نفسية خطرة. لذلك ينبغى ألا نتجاهل الموضوع على طول الخط وألا نسرف فى إبرازه كما أن من المهم ألا نخلق فى الطفل شغفا قويا بأحد والديه أو مدرسيه. فالشغف الزائد على الحد المعقول عند الطفل يعنى أنه يخشى الناس جميعا ماعدا ذلك الشخص الذى شغف به. وعلى هذا يؤدى فقده هذا الشخص إلى تحطيم حياته وحرمانه من الاستمتاع بالحب كما ينبغى أن يكون غير مشوب بالخوف والحذر.

وفى مرحلة المراهقة يحتاج الأمر إلى رعاية أكثر إيجابية لكى يتخذ المراهق مسلكا سليما إزاء الموت فينبغى أن نجعله يفكر قليلا فى موت أحبائه على أن لا يعتمد تحويل أفكاره عنه بل ذلك لأوجه النشاط وأنواع الهوايات التى تشغله بها. ففى مثل هذه الحال يشعر المراهق إذ يفكر فى الموت بأنه أعلى من أن يتأثر به وسيقول لنفسه: «أن الموت قد يفاجئنى أو يفاجئ عزيزا على ولكن كثيرين يتقدمون فى الحروب بشجاعة نحو الموت غير مبالين به أو يدفعون بأبنائهم إليه راضين فخورين لأنهم يؤمنون بنبل الهدف الذى ضحوا حياتهم أو حياة أبنائهم وأعزائهم فى سبيله»

إن مثل هذا الإحساس مرغوب فيه فى جميع الأوقات إذ ينبغى أن يحس المرء دائما أن هناك أشياء هامة يعيش من أجلها وأنه لذلك لن يهاب الموت إذا صادفه في الطريق قبل إتمام هذه الرسالة وإذا مات أحد ذويه فإن ذلك لن يعنى أن رسالته قد انتهت فى الحياة

ولكى نغرس هذا الإحساس فى نفس الشاب ينبغى أن توقد فى نفسه وهو مراهق شعلة الحماسة وحب الحياة

وأفضل وسيلة لذلك أن يكون الآباء والأمهات قدوة حسنة لأولادهم فى هذا المضمار كما أن التعليم ينبغى أن يبث فى نفوسهم فكرة الحياة فى سبيل أهداف نبيلة سامية وينبغى أن ندربهم على الصمود أمام كوارث الحياة.

■ ■ ■

عالمنا المجنون

العالم كله يشعر اليوم بأنه مندفع بقوة لا مرد لها فى طريق مؤدية إلى كوارث ماحقة. وكثيرون من الناس بلغ بهم الأمر الآن إلى حد الاعتقاد بأنه لا مفر من السقوط فى الهاوية. فالإنسان فى نظر هؤلاء لم يعد مالكا لمقدراته وسيدا لمصيره فهو خاضع لإرادة غير إرادته، إرادة فرضتها عليه الأقدار القاسية.

إن هذا الرأى – فى اعتقادى – نتيجة الكسل أو الوهم فلننظر إلى المصائب التى حلت بالجنس البشرى منذ حرب سنة 1914 والمصائب التى تتربصه وقد تكون أشد وقعا من الأولى. ولنعترف بأن مسئولية هذه وتلك من المصائب لا تقع على الأقدار بل على البشر أنفسهم على شهوات الكثيرين وعلى قرارات البعض.

ولكن، إذا كانت الشهوات والقرارات الخطيرة تؤدى إلى مصائب وويلات فقد تؤدى إلى الخير والفائدة. فمن الغباء إذن أن ندع شعور العجز يخنق فينا كل أثر للأمل والرجاء

هناك قوتان عظيمتان تسيطران اليوم على العالم. الأولى، العداء القائم بين الشيوعيين وخصومهم. والثانية، الرغبة فى تجنب حرب عالمية جديدة. وهاتان القوتان اللتان تعمل كل منهما فى اتجاه معاكس لاتجاه

القوة الأخرى جعلتا التوازن مفقودا فى العالم بين الكتلتين

ولسنا في حاجة إلى كثير من الخيال لكى ندرك أن مثل هذه الحالة قد تسفر عن حرب عالمية شاملة إذا وقع حادث خطير أو تافه ويصعب علينا من ناحية أخرى، أن نجد فى حالة الاضطراب هذه عاملا من شانه أن يدعم رغبة الناس فى الإبقاء على السلام وصيانته. ومع ذلك فأنا أعتقد اعتقادا راسخا بأن عامل السلام هذا موجود لا شك فيه ولكن أين هو ؟. وكيف نجده ؟.

بعض الناس يضعون أملهم فى إمكان حدوث تطور فى روسيا يغير وجهها وكيانها ولكننى من ناحيتى لا أظن أن المسئولين فى روسيا على استعداد الآن لاعتناق التعاليم التى نادى بها المسيح فى موعظة فوق الجبل.

ولا أمل أيضا فى الوصول إلى إقناع الخصم بواسطة الحجج والبراهين من خلال المناقشات التى لا نهاية لها. فإن الأدلة التى تقنع الناس أمام الستار الحديدى لا تكفى لإقناعهم خلفه.

ولا يمكن أن يجئ السلام عن طريق دعوة إلى تهدئة الخواطر تصدر من جانب واحد. فإن مثل هذه الدعوة تشجع الخصم على التشديد فى مطالبه والمبالغة فيها بحيث يصبح من الضرورى فيما بعد، مقاومته بالقوة

فالطريقة الوحيدة لإضعاف خطر الحرب. هى أن نفرغ جهودنا كلها فى نقطة معينة تحول رضى الطرفين المتنازعين بلا قيد ولا شرط. ولا أعرف غير نقطة واحدة أو حقيقة واحدة. لا يختلف فيها اثنان، يمكن اتخاذها محورا تلتقى عنده الآراء والأفكار. وهى أن حربا عالمية تنشب

فى الظروف الحاضرة وتستخدم فيها الأسلحة الذرية لابد أن تكون فى نتائجها كارثة على الغالب والمغلوب

هذا رأى الجميع. وهذه هى الحقيقة التى لا شك فيها. وهذه هى نقطة الالتقاء

ولو كنت من رجال السياسة المسموعى الكلمة لاقترحت عقد مؤتمر عام تدعى إليه جميع الدول الكبيرة ويكون جدول الأعمال فيه محصورا فى مسألة واحدة وهى:

« البحث فى الخراب والدمار اللذين تتركهما خلفها حرب عالمية جديدة »

ويحرم فى المؤتمر البحث فى العوامل التى يمكن أن تجعل النصر يميل من ناحية هذه أو تلك من الدول. فالغرض الوحيد من المؤتمر يجب أن يكون مقصورا على تحديد وبيان الأضرار والآلام والمصائب التى لابد أن تحل بالجميع من جراء تلك الحرب

إنه لمن الخطأ الفاضح أن نعد القنبلة الهيدروجينية سلاحا من شأنه أن يضمن النصر لمن يملك هذه القنبلة. فهى ليست غير أداة من أدوات التدمير والتخريب. فأية فائدة وأى خير يمكن أن تسفر عنه هذه المشاحنات القائمة اليوم بين الطرفين المتخاصمين؟

هذا يقول: «نحن عندنا القنبلة الهيدروجينية»

فيرد ذاك: «ونحن أيضا»

ويستطرد الأول قائلا: «نعم، ولكن عندنا نحن ما هو أحسن وأقوى مما عندكم»

ويعود الثانى فيرد قائلا: «هذا ممكن. ولكن مركزكم أنتم أضعف

من مركزنا وبلادكم معرضة أكثر من بلادنا لمفعول القنابل الهيدروجينية»

ويخشى جدا أن يؤدى هذا الأخذ والرد الذى لا نهاية له. إلى أن يقول أحد الطرفين للآخر:

- كفى تبجحا .. ولننظر فى الحال ما هى النتائج التى سيسفر عنها استخدام القنبلة الهيدروجينية

إن عملا مثل هذا لابد أن يؤدى إلى الانتحار والذى اقترحه على العالم الآن هو عقد مؤتمر ينظر فيه إلى جميع هذه الأسلحة المدمرة بوصفها من العوامل المؤدية إلى هزيمة الطرفين هزيمة تامة

هذه هى النقطة الوحيدة التى تلتقى عندها مصالح هذا الفريق وذاك الفريق على السواء. وإذن، فهى النقطة الوحيدة التى يمكن أن يدور حولها الجدل فى مؤتمر دولى بدون أن يقوم اعتراض من أحد الفريقين.

وكل من الاثنين سيخرج من هذا الاجتماع الدولى بشعور خاص وهو أن خصمه لن يقدم على الحرب إلا إذا أرغم على ذلك مكرها وبالرغم منه، بالنظر إلى العواقب الهائلة المخيفة المترتبة على صراع عالمى بالأسلحة الذرية وعندما يقتنع كل من الفريقين بهذا الرأى ويشتركان فى هذا الشعور فلابد أن ينتج عن ذلك تخفيف تدريجى فى حالة التوتر العام.

فى الوقت الحاضر نعتقد نحن الغربيون أننا لن نقدم على الاشتراك فى حرب عالمية إلا إذا وقع علينا اعتداء خارجى. ولكننا لسنا واثقين من أن هذا الاعتداء لن يقع فى مستقبل قريب أو بعيد ولا شك فى أن حالة نفسية مشابهة لهذه الحالة النفسية التى نحن فيها تسيطر الآن على الروس وأنهم يعتقدون مثل الذى نعتقده نحن ويقولون ما نقول.

وفى هذا التخوف المتبادل وعدم الثقة من الجانبين الخطر كل

الخطر ولكى يزول هذا الخطر ويتلاشى أثره يجب على الكتلتين الاتفاق على إعلان مشترك من الطرفين يصرح فيه كلاهما أنه لن يقدم على حرب إلا في حالة الدفاع عن النفس ويجب أن يحوى هذا الإعلان أو هذا التصريح المشترك اعترافا من الجانبين بأن كلا منهما يعتقد أن الحرب العالمية القادمة - إذا وقعت - سوف تجيء معها بهلاك شامل

ويجمل بالمحايدين أن يدعوا إلى عقد مؤتمر كالذى اقترحه هنا وعلى هؤلاء المحايدين أن يضعوا بيانا واضحا بالعواقب التى لابد أن تسفر عنها حرب عالمية شاملة. وفى وقت واحد تدعى الكتلتان إلى إبداء رأيهما فى البيان وفى الدعوة. وإذا عرف المحايدون كيف يعالجون هذا الأمر. وأفرغوا فى معالجته مقدارا كافيا من اللباقة وقوة الحجة ووسائل الإقناع. والتشبث بالرأى فإنه لن يستعصى عليهم حمل الكتلتين الغربية والشرقية على الاعتراف بصحة البيان وضرورة حل المشاكل بالطرق السليمة

■ ■ ■

الحب يقهر كل شئ

بعد رشفات كبيرة من الفودكا الممزوجة بالفلفل الأحمر، أخذت ستالين سنة من النوم وهو جالس في مقعده، وبأصابعهم فوق شفاههم راح مولوتوف،ومالينكوف، وبيريا، يحذرون الخدم المتطفلين من إقلاق راحة الرجل العظيم. ورأى ستالين في غفوته الحالم التالي :

لقد خاض غمار الحرب العالمية الثالثة وخسرها، ووقع أسيرا في أيدي الحلفاء الغربيين. ولما كانت محاكمات نورمبرج قد أسفرت عن عطف النازيين، قرر الحلفاء في هذه المرة، أن ينهجوا نهجا مغايرا، وسلم ستالين إلى لجنة تضم البارزين في «طائفة الكويكرز[1]» الذين راحوا يؤكدون أن هذا الرجل نفسه يمكن حمله، بقوة المحبة، على التوبة والحياة كمواطن معتدل رقيق الفؤاد.

وقرر أعضاء اللجنة غلق نوافذ غرفته حتى الانتهاء من مهمتهم الروحية خشية أن يأتي عملا طابعه التهور والاندفاع، والحيلولة دون

(1) الكويكرز: طائفة دينية اسمها جورج فوكس حوالي سنة 1650 ويسمى أعضاؤها أنفسهم بالأصحاب.

أن تقع يداه على مدية قد يعتدي بها، في نوبة من السخط والغضب، على أولئك المنهمكين في تهذيبه. لقد آووه في غرفتين مريحتين من منزل ريفي عتيق، أوصدت أبوابه ما خلا ساعة كل يوم، يصحبه خلالها أربعة من الكويكرز المفتولي العضلات في نزهة قصيرة تستهدف تلقينه الإعجاب بجمال الطبيعة والاستمتاع بشقشقة العصافير أما بقية اليوم فكان يقضيه في القراءة والكتابة وإن كانوا قد منعوا عنه أي كتاب أدبي من شأنه أن يثير العواطف ويلهبها، ولم يزود إلا بالكتاب المقدس وقصة «رحلة الحاج» و«كوخ العم توم» إلى جانب بعض روايات «شارلوت.م. يونج» كوسيلة للعلاج فحسب. ولم يكن يسمح له بالتدخين أو احتساء الخمر أو تناول الفلفل الأحمر. أما الكاكاو فكان بوسعه أن يحصل عليه في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل، إذ كان البارزون من حراسه متعهدين لتوريد هذا الشراب المفيد الذي لا يسبب للمرء ضررا. كما روعى الاعتدال فيما تقدم له من الشاي والقهوة، فلا يكونان بالقدر الوافر أو في الوقت غير المناسب فيحرماه من نوم هادئ.

كان الرجال المتزمتون ممن وكلت إليهم مهمة رعاية ستالين يقضون ساعة في الصباح ومثلها في المساء، يفسرون له مبادئ الحب المسيحي وما يمكن أن ينعم به من سعادة، برغم كل ما حدث، لو أنه اعترف بحكمتهم ليس إلا، أما المحادثة معه فقد اضطلع بها رجال ثلاثة يعدون أحكم من كان يؤمل في قدرتهم على اقناعه بالحقيقة وعونه على أن يرى نور الحق الوضاح، وهم السادة: طوبياس توجود، وصموئيل سويت، وولبراهام ويلدون.

وكان ستالين قد تعرف على أولئك الرجال أيام مجده حين قاموا برحلة إلى موسكو قبل أن تندلع نيران الحرب العالمية الثالثة بفترة وجيزة ليرجوه أن يقلع عن خططه ويحملوه على الاقتناع بخطل أساليبه، وطفقوا يحدثونه عن الصالح العام والحب المسيحي ويرددون، بعبارات طلية أخاذة، ما تجلبه الوداعة على النفس من بهجة وحبور، كما راحوا يؤكدون أن السعادة تكمن في أن تكون محبوبا أكثر منها في أن تبدو مرهوب الجانب. وأنصت لهم برهة وقد تذرع بصبر هو وليد الدهشة والاستغراب، ما لبث بعده أن انفجر فيهم وتساءل بصوت كالرعد: «ماذا تعرفون، أيها النبلاء، عن مباهج الحياة؟ ما من أحد منكم يفقه شيئا يذكر عن نشوة السيطرة على أمة بأسرها بنشر الرعب والهلع بينما تدرك أن الجميع يبغون موتك، لكن أحدا لا يجرؤ على التعرض لك، كما تعلم أن أعداءك في ربوع الأرض قاطبة غارقون في محاولات لا طائل من ورائها لسبر غور أفكارك الخفية، وأنت على يقين من أن سلطانك سيبقى بعد الإطاحة ليس بأعدائك فحسب بل بخلافتك على حد سواء. إن أسلوب الحياة الذي تقدمونه لي أيها النبلاء لا يغريني، فارجعوا إلى سعيكم الوضيع وراء الربح الذي تخفونه بادعاء التقوى والورع، واتركوني وشأني في إتباع أسلوب للحياة أكثر بطولة».

وعاد الصحاب «الكويكرز» أدراجهم، وقد باء مسعاهم بالفشل، في انتظار فرصة مواتية أفضل، لقد كان يحدوهم الأمل بعد أن سقط ستالين وصار في قبضتهم، أن يصير أكثر رضوخا وانصياعا. مما يدعو للعجب أنه كان لا يزال على ما هو عليه صلافة وعنادا. وكان

هؤلاء الصحاب ذوي حنكة واسعة وخبرة فائقة في العمل مع الأحداث المنحرفين، وإماطة اللثام عما في نفوسهم من عقد، وحملهم، بلباقة ولطف، على الاعتقاد بأن الأمانة هي خير أسلوب للحياة.

وابتدره «طوبياز توجود» بالقول: «ليتك، يا سيد ستالين، تكون قد تبينت ما ينطوي عليه أسلوبك في الحياة، الذي كنت تتمسك به من قبل، من عدم حكمة، لن أذكر شيئا مما جلبته على العالم من دمار وخراب حيث أن ذلك، كما ستؤكد لي، سيفقدك صوابك، لكن تمعن فيما أنزلته بنفسك، لقد سقطت من أوج مجدك وأضحيت أسيرا مغلوبا على أمره، وما بقي لك من عزاء إنما مرجعه إلى أن سجانيك لا يدينون بمبادئك. لقد فارقتك تلك المباهج البشعة التي حدثتنا عنها عندما زرناك أيام مجدك، ولو تسنى لك تحطيم حاجز الكبرياء وندمت على ما بدر منك وتعلمت أن تجد السعادة في سعادة الغير، لأصبح لك هدف في الحياة وأحسست بالقناعة والرضا في أيامك الباقية»

وعندئذ هب ستالين واقفا وصاح قائلا: «اذهب إلى الجحيم أيها المنافق الأبله. أنني لا أعي شيئا مما ترددون خلا أنكم في القمة وأنا تحت رحمتكم، وأنكم ابتدعتم أسلوبا للازدراء بسوء حظي أشد حقدا وأكثر إذلالا من أي أسلوب اتبعته في القيام بحركات التطهير»

فقال السيد: سويت: «كيف تبدو، يا سيد ستالين، على هذا النحو من الجور والقسوة ؟. ألا ترى أننا لا نكن لك سوى النوايا الحسنة ؟. ألا تدرك أننا لا نبغي غير خلاص نفسك، وما يحز في نفوسنا هو ما غرسته في أعدائك وأصدقائك على السواء من عنف وبغض؟ ولا

تحدونا أية رغبة في إذلالك، ولو تسنى لك أن تقدر العظمة الأرضية على أساس قيمتها الحقيقية فحسب، لأدركت أن ما نقدمه لك إنما هو فكاك من المهانة»

فصاح ستالين: «هذا، في الواقع، أكثر مما يحتمل، لما كنت فتى يافعا كنت أتقبل مثل هذا الحديث في مدرسة القديس جورج، بيد أن هذا لا يمكن أن ينصت إليه رجل ناضج. بدون أن يضيق به صدرا، ليتنى أومن بالجحيم حتى أتطلع إلى ذلك اليوم الذي تطيب فيه نفسى برؤية رقتكم وهي تتبدد مع اللهب اللافحة»

فقال السيد ويلدون: «بئس ما تقول أيها العزيز ستالين أرجوك ألا تستشيط غضبا، فبالهدوء فحسب تدرك حكمة ما نحاول إظهاره لك»

وقبل أن يرد ستالين الإهانة تدخل « توجود » ثانية وقال: «إنني واثق من أن رجلا في مثل ذكائك الخارق لن يظل أعمى عن الحقيقة أبد الدهر، لكنك في اللحظة الراهنة بادى الإعياء، وأرى أن قدحا من الكاكاو المهدئ أفضل مما تحتسيه من الشاى المنبه»

وعندئذ لم يعد ستالين قادرا على كبح جماح نفسه وأمسك بإبريق الشاى ورمى به رأس توجود. فأخذ السائل الساخن يتدفق من فوق وجهه، ومع ذلك لم ينبس إلا بقوله: «كف عما تفعل يا ستالين، ليست تلك طريقة للمناقشة»

وفي نوبة من الغضب استيقظ ستالين، وظل ثائرا لحظة صب خلالها جام غضبه على مولوتوف وماليتكوف وبيريا، فارتعدت

أوصالهم وامتقعت وجوههم، لكن ما أن انقشعت سحب النوم حتى تبدد غضبه وراح يستمتع برشفة عميقة من الفودكا المزدوجة بالفلفل الأحمر.

■ ■ ■

انتصار الوجود



ملأت شهرة «بورفيراجلانتين» الشاعر الفيلسوف العظيم، الآفاق بمؤلفاته العميقة الرائعة المتعددة ولاسيما بقصيدته الخالدة «أنشودة العدم»

في البيداء المترامية
حيث تمتد الرمال إلى ما لا نهاية
أبحث
أبحث عن الطريق المفقود
الطريق الذي لا أهتدي إليه
وتحوم روحي هنا وهناك
في كل اتجاه وفج
تتلمس فلا تصادف شيئا
وسط هذا الفضاء العريض
هذا الفضاء اللانهائي
هذه الرمال..
هذه الرمال المتوهجة المزهقة للأنفاس
هذه الرمال الآسنة المملة
التي تمتد في غير ماحد

إلى الأفق البعيد ..
ويترامى إلى أخيرا
صوت ..
صوت مدو عذب معا
يهتف
أتظن أنك روح ضائعة
تحسب أنك روح ..
لكنك واهم - فلست بروح
لا ولا أنت ضائع
فأنت عدم
ولا وجود لك.

رغم ذيوع هذه القصيدة وانتشارها فإن نفرا قليلا يعرف الظروف التي حملت على نظمها وما أسفرت عنه من أحداث.

وأرى لزاما عليّ أن أسرد هذه الظروف وتلك الأحداث رغم ما تنطوي عليه من ألم وضني.

كان «بورفير» منذ فجر شبابه مرهف الإحساس ويعاني من ألم ممض، فلقد استبد به الخوف من أنه قد لا يكون موجودا، وكان كلما تطلع إلى المرآة ساورته الشكوك في ألا تظهر صورته، فابتدع لنفسه فلسفة من شانها، كما كان يأمل، أن تذهب بهذا الخوف وتبدد تلك الشكوك، لكن هذه الفلسفة كانت تخفق، من حين لآخر في أن تشفي غليله، واستطاع، بوجه عام، أن يواري شكوكه، لكن أنشودة العدم التي تعبر عن رؤيا مفاجئة محطمة، تكشف عن أن النجاح لم يحالفه. فعقد العزم على ان يثبت وجوده بأي ثمن وبصورة قاطعة تخمد الصوت الذي يعذبه.

وبدوام تأمل النفس والملاحظة الدقيقة اقتنع في النهاية بأن ما من شئ حقيقي كالألم، وأن بالألم وحده يتحقق الوجود. فراح ينشد الآلام في ربوع الأرض قاطبة بالقيام برحلة الحزن والأسى، حتى لقد قضى شتاء في القطب الجنوبي منعزلا وحيدا حيث كان الليل لا ينتهي يوحي بأحلام مزعجة عما يحمله المستقبل من كآبة وغم.

وعرض نفسه لألوان العذاب في ألمانيا زاعما أنه يهودي، لكن في عين للحظة التي بلغ فيها عذابه حدا لا يحتمل، اقتحم «غراب يو[1]» معسكر التعذيب وحطم الصمت الرهيب معلنا بصوت حزين: «إنك لا تتألم، أنك عدم، ولا وجود لك».

ورحل إلى روسيا حيث ادعى أنه جاسوس يعمل لحساب الحكومة البريطانية، فقضى شتاء طويلا يقطع الأشجار بجوار البحر الأبيض. وكان الجوع والتعب والبرد تنفذ إلى أعماقه يوما فيوما. وتراءى له أنه لو استمر هكذا طويلا لأحس بوجوده ولا ريب، لكن هذا لم يحدث ففي اليوم الأخير من أيام الشتاء حين بدأ الجليد يذوب، عاد الطائر الرهيب يردد كلمات الفشل عينها.

وطفق يفكر «لعل الآلام التي أنشدها هينة بسيطة، ولو أردت أن أكون بائسا حقا لتحتم أن أمزج أحزاني بعنصر الذلة والهوان»

وتحقيقا لهذا الهدف، انطلق إلى الصين حيث وقع في غرام عنيف مع فتاة صينية بارعة الجمال تحتل مكانة مرموقة في لجان الحزب الشيوعي. وراح يلفق الوثائق ويزورها حتى أدينت الفتاة كجاسوسة للحكومة البريطانية، وتعرضت في حضرته لألوان من التعذيب المبرح، وحين بلغ العذاب حد الموت قال لنفسه: «الآن قد تألمت حقا، فقد أحببتها لآخر لحظة حبا جما، وحطمتها بخيانتي المشوبة بالجبن

(1) الإشارة هنا إلى الروائي والشاعر الأمريكي الشهير «ادجار آلان بو» الذي تتميز مؤلفاته بالخيالات الغريبة ومنها صورة الغراب المشار إليه هنا

والنذالة، ولا مراء في أن هذا يبعث في نفسي من الألم والضنى أقصى ما تتحمله الطاقة البشرية». ولم تكن هذه هي الحقيقة، وبرهبة عنيفة أفقدته القدرة على الحركة، راح يرقب طائر القدر يعود ليحلق في الأفق وينطلق ثانية بصوت الشاعر الخالد الذي قدم الطائر إلى الوسط الأدبي في باريس.

وأخذ يعبر عن يأسه بمشقة بالغة بينما الطائر لا يزال يحلق في السماء قائلا: «أيها الغراب هل هناك في هذا العالم الفسيح بأسره ما يحملك على الاعتراف بأني موجود؟» فلم يفه الغراب إلا بكلمة «عليك بالبحث» ثم اختفى عن الأنظار.

ولا يمكن الزعم بأن «بورفير» قد ترك بحثه عن الألم يستولي على كل نشاطه، لكنه ظل دائما الشاعر الفيلسوف يحظى بالإعجاب والتقدير في كل مكان ولاسيما في أكثر الدوائر سرية. وعند عودته من الصين دعي لحضور مؤتمر للفلسفة عقد في باريس، كان هدفه الأسمى تكريمه وتبجيله، وحضر المدعوون ماخلا الرئيس، وبينما كان يتساءل عن موعد قدوم الرئيس أقبل الغراب واحتل مقعد الشرف. واستدار ناحية « بورفير » وعدل من عباراته المألوفة وصاح بصوت مجلجل تناهى إلى سمع أعضاء المؤتمر جميعا:» لا وجود لفلسفتك، فهي عدم «. وما أن تفوه بهذه الكلمات حتى غمرت كل كيان الفيلسوف موجة من الرعب والكرب لم تدانها تجربة سابقة وسقط مغشيا عليه، وحين عاد إلى رشده، سمع الطائر يردد ما كان يتوق إلى سماعه: «أخيرا أنت تتألم. أخيرا أنت موجود!»

واستيقظ فإذا هو حلم.

لكنه لم يعد بعد اليوم يتحدث عن الفلسفة أو يكتبها.

■ ■ ■

التكيف - الهروب

لقد كتب على الثوار أن يقيموا مذاهب جديدة، والسبيل إلى ذلك في ميدان التحليل النفسي هو ما يتضمنه، بصورة مقنعة، كتاب بعنوان: «علاج للثورة» للدكتور «روبرت لندنر». ولا يسع المرء إلا أن يفترض أن عددا كبيرا من المحللين النفسيين تنتابهم الهواجس الدفينة، ولقد داهم أحدهم الكابوس المزعج التالي رغم ما تتسم به آراؤه في ساعات يقظته من استقامة واعتدال:

كانت اللجنة السداسية تعقد اجتماعها السنوي في قاعة نادي الروتاري بلمبو، يطل عليها تمثال لشكسبير. وكانت تضم: هاملت، ولير وماكبث، وعطيل، وأنطونيو، وروميو، هؤلاء الأعضاء الذين قام الدكتور بومباستيكوس – طبيب ماكبث – بتحليلهم وهم بعد أحياء على وجه الدنيا. وكان ماكبث، قبل أن يلقنه بومباستيكوس الحديث باللغة الإنجليزية العادية، قد تساءل بلغة التكلف التي كان يستخدمها آنذاك: «هلا استطعت علاج عقل مختل؟ «فأجاب الطبيب: يا له من سؤال!. هذا ما لا شك فيه، وما عليك إلا أن تضطجع فوق أريكتي وتمضي في الحديث، وسوف أنصت إليك مقابل جنيه عن كل دقيقة». وسرعان ما وافق ماكبث، كما فعل الخمسة الآخرون في فترات متباينة.

وطفق ماكبث يسرد كيف راودته أوهام القتل، وأنه رأى في حلم طويل كل ما يذكره شكسبير، والتقى، لحسن حظه، بالطبيب في الوقت المناسب، فكشف له إنه إنما يتصور دنكان أبا و الليدي ماكبث أما، واستطاع الطبيب، بمشقة، إقناعه بأن دنكان لم يكن، في حقيقة الأمر، أباه، ومن ثم أضحى من الرعايا المخلصين فلما مات مالكولم ودونالبين في سن مبكرة، خلفهما ماكبث في الوقت المعين، وظل مخلصا لليدي ماكبث، وقضيا أيامهما يضطلعان بجليل الأعمال. فشجع ماكبث الكشافة، وفتحت هي الأسواق، وعاش طويلا يحظى بتبجيل الجميع ما خلا البواب.

وهنا نطق التمثال الذي كان يحمل حاكيا بداخله «إن أيامنا السالفة كلها تضئ للحمقى الطريق إلى الموت الزؤام»

وفزع ماكبث وقال: «لعنة الله على هذا التمثال، لقد كتب عني ذلك الذي يدعى شكسبير أعنف الروايات هجوما وتشهيرا، وهو لم يكن يعرفني إلا عندما كنت فتى يافعا لم ألتق بعد بالدكتور بومباستيكوس، وراح يطلق لخياله العنان ليصور ما كان يأمل فيما ارتكبه من جرائم ولست أرى مبررا لإصرار الناس على تكريمه وتبجيله، مع أنك تكاد لا تعثر في مسرحياته على شخصية «ليست أوعى مني بالدكتور بومباستيكوس». واستدار نحو «لير» متسائلا: «ألا توافقني، أيها العجوز؟».

كان لير رجلا طابعه الهدوء والسكينة، لا يميل إلى الثرثرة، ورغم تقدمه في العمر كان يحسن تصفيف شعره، وتنسيق هندامه، ويبدو أن النعاس كان يغالبه في معظم الأحيان، فما لبث سؤال ماكبث أن أيقظه.

فأجاب «لير»: «بلى، إنني أسلم بذلك، أتعلم أنه قد استبد بي، ذات يوم، شعور بالنفور من ابنتي العزيزتين «ريجان وجونريل» وخيل لي أنهما تضطهدانني، كما توهمت أنهما قد أخذتا تحييان عادة أكل لحوم

الآباء. ولم أتبين هذا الوهم إلا بعد أن أماط الدكتور بومباستيكوس عنه اللثام، وانزعجت وبلغ مني الرعب أنني اندفعت، تحت جنح الظلام، في قلب العاصفة، فابتللت وأصبت بنزلة برد أدت إلى حمى، وخيل إليّ أن المقعد في بادئ الأمر «جونريل» ثم تحول إلى ريجان. ومما زاد حالتي سوءا مهرجي، وكذلك رجل معتوه عاري البدن دفعني إلى الإيمان بالعودة إلى الطبيعة، وطفق يحدثني عن أمور لا أهمية لها مثل « بيليكوك » و« الطفل رولاند ». وبرح بي المرض وبلغ، لحسن الحظ، حدا اقتضى الاستعانة بالدكتور بومباستيكوس الذي سرعان ما أقنعني بأن ريجان وجونريل عطوفان كحسبي بهما دائما، وأن ما استبد بي من أوهام إنما مرده إلى الشعور بالأسف البالغ إزاء ما بدر من كورديليا الجاحدة. ومنذ أن نلت الشفاء وأنا أنعم بحياة طابعها الهدوء والاستقرار، فلا أظهر إلا في المناسبات الرسمية مثل أعياد ميلاد ابنتي حين أطلت من إحدى الشرفات فيهتف الجمهور مرددا: «تحيات ثلاث للملك العجوز! ». لقد كانت الهتافات تستميلني، لكن يسعدني القول بأن هذا الإحساس قد تبدد وتلاشى.

وهنا انطلق التمثال يقول: «إنك، أيها الرعد العاصف، تصعق كروية الأرض السميكة فتحيلها أرضا منبسطة».

وتساءل ماكبث: «وهل تحس الآن بسعادة؟»

فقال لير: «آه أجل، إنني سعيد بقدر ما طال النهار، فأنا أجلس في مقعدي متظاهرا بالصبر، أو تأخذني سنة من النوم دون التفكير في شئ».

التمثال: «بعد نوبات حمى الحياة يروح في سبات عميق».

فقال لير: «يا له من قول أخرق !. إن الحياة ليست نوبات من الحمى، كما أني أنعم بنوم هادئ غم أني لا أزال على قيد الحياة، وهذا

القول ضرب من التفاهة التي كانت تتملكني قبل أن أعرف الدكتور بومباستيكوس»

وأطلق التمثال لنفسه العنان ليدلي بملاحظة أخرى فقال: «عندما نولد، فصرخ لأننا جئنا إلى هذا المسرح الكبير الذي يضم الأغبياء».

وصاح لير، وقد فقد لحظة مابدا عليه من قبل من اتزان وكبح جماح النفس: «مسرح الأغبياء، ليت التمثال يتعلم كيف يفوه بما بعقل، أيجرؤ على اعتبارنا أغبياء؟ نحن الذين نعتبر أكثر مواطني «لمبو» احتراما وتبجيلا. لعل الدكتور بومباستيكوس يستطيع علاج التمثال!. فما رأيك يا عطيل؟»

فقال عطيل: «حسنا، لقد عاملني ذلك الوغد شكسبير أسوأ مما فعل بك وبماكبث، فإنني لم ألتق به سوى بضعة أيام كنت أجتاز خلالها أزمة في حياتي. لقد أخطأت بزواجي من فتاة بيضاء إذ سرعان ما استبان لي استحالة حبها الخالص لرجل ملون. وحين عرفني شكسبير كانت، في الحقيقة، تنسج خيوط مؤامرة لتلوذ بالفرار مع مساعدي كاسيو. فملأت الغبطة نفسي، إذ كانت كابوسا جاثما فوق صدري. بيد أن شكسبير توهم أن الغيرة قد استبدت بي، ولما كنت متيما آنذاك بالبلاغة، رحت ألقي خطبا تنم عن الغيرة إرضاء له. وكشف لي الدكتور بومباستيكوس الذي التقيت به وقتئذ، أن أساس المشكلة برمتها هو مركب النقص الذي نشأ عن كوني أسود البشرة، وكنت أحسب دائما في حياتي الواعية أنه شئ رائع أن أكون أسود اللون. أكون أسود ومع ذلك مرموق المكانة. فما لبث الدكتور بومباستيكوس أن أزاح النقاب عن مشاعر أخرى تكمن في اللاوعي، مشاعر تثير ثورة لا تهدأ إلا بالقتال، وبعد شفائي منها عزفت عن الحرب، وتزوجت من امرأة سوداء، وصارت لي أسرة كبيرة، وكرست حياتي للتجارة. ولم أعد أشعر بميل إلى التفاخر أو التفوه بذلك الضرب

من الهراء الذي كان يثير في نفوس المواطنين العقلاء دهشة واستغرابا».

وهتف التمثال: «كبرياء وعظمة وواقعة حرب مجيدة».

فقال عطيل: «أنصت إليه، لعل هذا عين ما كنت سأردده لو لم ألتق بالدكتور بومباستيكوس، بيد أنني لا أؤمن اليوم بالعنف، وأدري أن الدماء الناجح أجدى منه بكثير».

فتمتم التمثال: «لقد أمسكت بعنق الكلب المختون».

وفجأة انبعث بريق من عيني عطيل وصاح قائلا: «لعنة الله على هذا التمثال !. سوف أقبض على عنقه ما لم يأخذ حذره».

وتساءل أنطونيو الذي لم ينبس ببنت شفة: «وهل تحب زوجك السوداء بقدر ما كنت تحب ديدمونة؟».

فتأوه عطيل قائلا: «حسنا، أنها مسألة أخرى كما تعلم، فهي علاقة أكثر نضوجا وأشد ارتباطا بواجباتي العامة، فلا يشوبها تطرف وعنف لا مبرر لهما، ولا تغريني على أن آتي أعمالا يأسف لها أي عضو مخلص من أعضاء الروتاري».

فاستطرد التمثال: «لو أصابتها المنية اليوم لكانت أشد سعادة».

وقال عطيل: «أصغ إلى ما يقول، هذه عين الملاحظة التي أبرأني منها بروفسير بومباستيكوس، وبفضله، من لا أقوى على أن أقدم له ما يجب من الشكر والامتنان، لم أعد الآن أحس بتلك المشاعر المتطرفة فزوجي سيدة طيبة القلب. فهي تعد لي طعاما شهيا، وترعى أبنائي، وتدفئ جسمي. ولست أرى مزيدا يبتغيه رجل عاقل من زوجة».

وتمتم التمثال: «أطفئ النور، ثم أطفئ النور».

واستدار عطيل نحوه، وقال: «لن انبس ببنت شفة ما دمت تقاطعني، ولكن لنسمع قصتك يا انطونيو»

قال أنطونيو: «حسنا، لا يخفي على جميعكم ما ذكره عني شكسبير من أكاذيب مجحفة. حدث يوما أنني تصورت كليوباترا أما ليس الفسق معها حراما، كما كان قيصر على الدوام بمثابة أب لي، وكان من الطبيعي أن أنظر إليها كأم في ضوء علاقتها بقيصر لكن شكسبير زعم، ونجح في هذا الزعم على نحو ضلل المؤرخين الجادين أنفسهم، بأن افتتاني بها كان متأصلا في أعماق نفسي وقادني إلى الدمار. لم تكن هذه هي الحقيقة طبعا، وكشف لي الدكتور بومباستيكوس الذي التقيت به أبان معركة أكتيوم، ما كان يعتمل في عقلي اللاشعوري، وسرعان ما تبينت بفضل قوة تأثيره، أن كليوباترا لم تكن تتحلى بما خلعته عليها من مفاتن، وأن حبي لها لم يكن سوى نزوة عاطفية. وبفضله استطعت أن أتصرف بحكمة فوضعت حدا للنزاع القائم بيني وبين أوكتافيوس وعدت إلى شقيقته، زوجتي الشرعية على أية حال. ومن ثم نعمت بحياة مبجلة وأصبحت أهلا لعضوية هذه اللجنة. وحين اضطرني واجبي إلى قتل كليوباترا أحسست بالندم، بيد أنه لم يكن هنالك إجراء آخر يدعم الصلح بيني وبين أوكتافيا وشقيقها. لقد كان أداء هذا الواجب بغيضا على النفس بلا مراء، لكن ما من مواطن مخلص يعزف على أداء كل هذه الواجبات حين يقتضيها الصالح العام».

وتساءل عطيل: «هل كنت تحب أوكتافيا؟»

فأجاب أنطونيو: «آه، حسنا لست أعرف على وجه الدقة ما ينبغي أن يسمى حبا. أني أشعر نحوها بالإحساس الذي يجب أن يشعر به نحو زوجه كل مواطن وقور مبجل. لقد كنت أكن لها التقدير. ورأيت أنها رفيقة كفاح وأهل للثقة. وتسنى لي بمشورتها أن أعيش طبقا لوصايا الدكتور بومباستيكوس وتوجيهاته. أما الحب العاطفي، كما كنت أخاله قبل أن التقي بذلك الرجل الشهير، فقد أنحيته جانبا وحظيت، بدلا منه بإعجاب رجال الأخلاق».

وصاح التمثال: «من بين آلاف القبلات العديدة أطبع على شفتيك القبلة الأخيرة الفاترة».

وما أن تناهت هذه الكلمات إلى سمع أنطونيو حتى ارتعد من أم رأسه إلى أخمص قدمه، وأخذت عيناه تذرفان الدموع، وبمشقة تمالك نفسه وقال: «كلا، لقد قطعت صلتي بهذا كله».

فأردف التمثال: «لقد ولى اليوم المشرق، وها نحن نواجه اليوم المظلم».

قال أنطونيو: «إن هذا التمثال لفاجر حقا.. أيحسب أن من اللائق التحدث عن «اليوم المشرق» وهو يعني الارتماء بين أحضان عاهر؟ لست أرى سببا يحمل أعضاء الروتاري على احتماله والصبر عليه، لكن ما رأيك يا روميو؟ لقد انغمست بدورك في نزوة الحب على حد ما ذكره المستهجن العجوز».

فأجاب روميو: «حسنا، أعتقد أنه كان أبعد عن جادة الصواب مما كان عليه بالنسبة لك، أنني أذكر قصة حب مراهقة مع فتاة لست على يقين من اسمها. ولعله كان أقرب إلى جمينا - أو جوانا - آه، كلا، لقد تذكرته، إنه جوليت !»

وقاطعه التمثال قائلا: «يلوح أنها تتدلى فوق وجنة الليل كلؤلؤة ثمينة في أذن حبشي».

واستطرد روميو: «كنا جد صغيرين أحمقين، وقد لقيت جوليت حتفها في ظروف محزنة».

وعاد التمثال يقاطعه: «إن جمالها يحيل هذا القبر قاعة ولائم تشع ضوءا».

ومضى روميو يقول: «لقد أبرأني الدكتور بومباستيكوس الذي كان يعمل وقتئذ صيدليا، من اليأس الأخرق الذي تملك نفسي فترة وجيزة. وكشف لي أن الدافع الحقيقي الذي كان يحركني إنما هو ثورة على الأب حملتني على الزعم بأنه أمر بالغ الشأو أن أقع في غرام فتاة من أسرة كابوليت، وراح يشرح كيف أن الثورة على الأب ظلت مصدرا للسلوك غير السوي عبر الأجيال، كما ذكرني بأن المراهق الذي هو ابن اليوم سوف يصير حسب قانون الطبيعة أبا في الغد، وأبرأني من الكراهية اللاشعورية التي كنت أحملها لأبي، وساعدته على أن أصبح جديرا بأسرة مونتاجي وشرفها. وفي الوقت المعين تزوجت من ابنة شقيق الأمير، وحظيت باحترام الجميع وكففت عن التعبير عن تلك المشاعر المتطرفة التي لا تؤدي إلا إلى الدمار، كما أوضح شكسبير».

قال التمثال: «إن سمك لسريع المفعول، وهكذا أموت وأنا أطبع قبلة على شفتيك».

واستطرد روميو: «حسنا، هذا يكفيني، فلنسمع قصتك يا هاملت».

واستهل هاملت حديثه قائلا: «كنت أسعد حظا في لقائي بالدكتور بومباستيكوس، فلا مراء في أن حالتي كانت جد سيئة. فقد كنت مخلصا لأمي، وتوهمت أن هذا هو حالي مع أبي. فما كان من الدكتور بومباستيكوس إلا أن أقنعني بعدئذ بأني كنت أبغضه كل البغض لغيرتي منه. وحين تزوجت أمي من عمي تمثلت الكراهية اللاشعورية أبي في كراهية شعورية لعمي. وبلغ تأثير هذا الشعور على نفسي حدا انتابني معه الهذيان والخيالات العصبية، وحسبت أنني شاهدت أبي، وتوهمت أنه يخبرني أن أخاه هو الذي أرداه قتيلا، ورأيت من واجبي قتل عمي، وخلته يوما مختبئا خلف إحدى الستائر، فوجهت طعنة إلى ما تصورت انه عمي، ولم يكن الذي حسبته في جنوني رئيسا للوزراء، سوى فأر، وحمل

هذا التصرف كل امرئ على الاعتقاد بأن جنوني خطير، فاستدعى الدكتور بومباستيكوس لعلاجي. فأدى لي خدمة جليلة، إذ جعلني أتنبه لعواطفي المحرمة نحو أمي، وكراهيتي اللاشعورية لأبي وتحول هذا الشعور إلى عمي. كان يتملكني إحساس سخيف جدا بالاعتداد بالذات ويتراءى لي أن الزمن قد فقد ترابطه، وأنني خلقت لإصلاحه. فأقنعني الدكتور بومباستيكوس بأنني أصغر من أن ألم بفنون الحكم. وأدركت خطأي في معارضة النظام القائم الذي يدين له بالولاء كل من هو سوي. وأبديت أسفي لأمي عما بدر مني من كلمات نابية، وأقمت علاقات طيبة مع عمي، وأن يكن من واجبي الاعتراف بأني كنت لا أزال أراه إنسانا يبعث على الملل وتزوجت من أوفليا الزوجة المطيعة المستسلمة، كما أمسكت بأعنة الحكم في الوقت المعين، وتسنى لي في المنازعات التي وقعت مع بولندا أن أصون شرف بلادي بخوض معارك كللت بالظفر، ثم قضيت نحبي أحظى باحترام الجميع وتبجيلهم، ولم ينل عمي نفسه تكريما قوميا يفوق ما نعمت به».

قال التمثال: «ليس ثمة ما هو خير أو شر، وإنما التفكير هو الذي يحدد ذلك».

قال هاملت: «أصغ إلى الصبي العجوز الذي ما انفك يردد الهراء عينه. أليس واضحا أن ما قمت به كان خيرا؟ وأن ما زعم شكسبير أنني ارتكبته، كان شرا».

وتساءل ماكبث: «ألم يكن لك صديق في مثل سنك يشجعك على حماقاتك؟»

فأجاب هاملت: «آه، أجل، لقد كان ثمة شاب، على حد قولك، لكن ما اسمه؟ أكان يدعى نلسون، كلا، لا أظن أن ذلك الاسم صحيح، آه

لقد تذكرت.. كان اسمه هوريشيو. أجل. كان له، ولا شك، تأثير سيئ على نفسي».

فقال له التمثال: «نعمت مساء أيها الأمير اللطيف، ولتنشد أسراب الملائكة ما يبعث الارتياح إلى نفسك».

فقال هاملت: «آه أجل هذا رائع للغاية، أنها عين الملاحظة غير الدقيقة التي كانت تستهوي شكسبير، أبرأني الدكتور بومباستيكوس حتى تخليت عن هوريشيو وصادقت روزنكرانتز وجيلدنسترن اللذين كانا سويين، كما ذكر بومباستيكوس».

وتمتم التمثال: «بمن أثق به ثقتي بثعابين ذات أنياب»

وتساءل أنطونيو: وما رأيك في هذا كله وأنت الآن في عداد الموتى؟.

فأجاب هاملت: «آه، حسنا لا أنكر أن ثمة أوقاتا أشعر فيها بضرب من الندم على الحماس القديم، والكلمات البراقية التي كانت تنساب من بين شفتي، والبصيرة الثاقبة التي كانت لنفسي مصدر عذاب وبهجة في آن واحد، وتجول بخاطري الآن مقطوعة بليغة رائعة من إبداعي مطلعها: «يا للإنسان من عمل رائع!». لست أنكر أن هذا الإنسان يحظى بنوع من التقدير في عالمه المجنون، لكني آثرت الحياة في العالم العاقل، عالم الرجال الجادين الذين يؤدون الواجبات المألوفة بدون شك وبلا تساؤل، الذين لا تمتد أبصارهم أسفل السطح خشية ما قد يرونه. والذين يكرمون آباءهم وأمهاتهم ويرتكبون الجرائم التي ساعدت على نجاح آبائهم وأمهاتهم وازدهارهم، والذين يناصرون الدولة دون تساؤل عما إذا كانت جديرة بمناصرتهم، والذين لا يشتركون في أكذوبة ما لم تخدم مصالح الأقوياء، لقد آمنت بهذه العقيدة متبعا تعاليم الدكتور بومباستيكوس. وبهذه العقيدة عشت، ووفق تعاليمها قضيت نحبي»:

وعاد التمثال يقول: «ونحن في سبات الموت، لابد للأحلام التي تراودنا بعد أن ننفض عنا غلاف الفناء وأن تبعث الراحة في نفوسنا».

فقال هاملت: «هراء أيها العجوز الثابت على العهد، فأنا لا أرى أحلاما قط، وأنا أستمتع بالعالم كما أراه، وهذا ما أتمناه، فما الذي يوجد في الدنيا ويتعذر على المدعين أمثالي تحقيقه؟».

فأجاب التمثال: «لعل المرء يبتسم، ويبتسم، وهو وغد».

فاستطرد هاملت: «حسنا، أنني أوثر أن أبتسم وأكون وغدا على أن أبكي وأكون إنسانا خيرا».

قال التمثال: «رغم أنني أؤمن، يا سيدي، بكل ذلك حق الإيمان، إلا أنني أعتقد أنه ليس من الأمانة في شئ أن تقرر هذه الحقيقة على هذا النحو».

فقال هاملت: «أجل، وما قيمة العدالة في نظري، إذا كان للظلم فائدة لنفسي».

ومضى التمثال يقول: «ومن ذا الذي يتحمل سياط الزمن وسخرياته؟».

فصاح به هاملت: «آه، لا تعذبني».

وأردف التمثال: «لن تبرح هذا المكان قبل أن أضع أمامك مرآة علها تكشف لك أعمق جزء فيك».

فصاح هاملت قائلا: «يا لي من محتال خداع، وعبد ساذج، إلى الجحيم مع الدكتور بومباستيكوس ! إلى الجحيم مع التكيف إلى الجحيم مع الحكمة وكيل الثناء للأغبياء». وما أن نطق بهذه الكلمات حتى سقط مغشيا عليه.

وقال التمثال: «الباقي سكون ..»

وهنا تناهت إلى الآذان صرخة غريبة، دوت من الأعماق منبعثة من أنبوبة لم يسبق لأعضاء الروتاري أن لاحظوها، وانطلق صوت معذب يقول في أنين: «أنا الدكتور بومباستيكوس. إنني في الجحيم!. إنني أعترف وأتوب !. لقد قتلت نفوسكم، لكن بصيص الأمل الذي ما زال يراود هاملت هو الذي أدانني. إنني أعيش في الجحيم، لكنني لم أعرف بعد الجريمة التي أودت بي إلى هذا المكان أنني أعيش في الجحيم لأني آثرت الذل على المجد، وفضلت الخنوع على العظمة والأبهة، وطلبت السكينة والهدوء بدلا من وميض البرق، ولأني كنت أرهب الرعد بقدر ما أفضل الرذاذ الرطيب الذي لا ينقطع. لقد حملتني نوبة هاملت على أن أعرف خطيئتي. وفي الجحيم حيث أعيش تستبد بي عقد لا نهاية لها. وعبثا أدعو القديس «فرويد» وأتوسل إليه، ولا زلت أسير دوامة الجنون التي لا حد لها. فيا من كنتم ضحيتي تشفعوا لي، أرفع ما جلبته عليكم من شر».

ولم ينصت إليه بقية الأعضاء الخمسة، وإنما استداروا في سورة غضب نحو التمثال الذي جلب اليأس إلى صديقهم هاملت، وراحوا يوجهون إليه اللكمات العنيفة. فأخذ التمثال ينهار رويدا رويدا، وإذ لم يبق منه سوى الرأس تمتم قائلا: يا إلهي!. يا لهؤلاء البشر من حمقى!».

وظل الأعضاء الخمسة في «ليمبو» وبقى الدكتور بومباستيكوس في الجحيم، أما هاملت فقد حملته الملائكة ورسل النعمة إلى السماء.

■ ■ ■

زوجة حائرة



لم يحدث يوما أن أظهر السيد «باودلر» - المؤلف الجدير بالتقدير لكتاب «شكسبير الأسرة» الذي يمكن أن تقرأه أكثر الفتيات براءة دون أن يتضرج وجهها استحياء - في يقظته أدنى شك في جدوى ما يضطلع به من أعمال، لكن يلوح أنه ما زال يكمن في أعماق اللاشعور لذلك الرجل الطيب. صوت خافت طابعه الخبث والسخرية. لقد كان من دأبة في أيام الآحاد أن يوزع بسخاء على أفراد أسرته قطعا من لحم الخنزير، دون أن يترك لنفسه شيئا يذكر، تصحبها البطاطس المسلوقة والكرنب، تليهما شطائر الكعك. وكان يخص نفسه، دون سائر أفراد الأسرة، بقدر معقول من الجعة الصفراء اللون، كما كان من عادته أن يقوم بنزهة قصيرة عقب هذه الوليمة، ثم حدث يوما أن انهمر المطر غزيرا وتساقط الجليد، فسمح لنفسه بالخروج على هذا الروتين فإذا هو يستريح في مقعد يطالع كتابا مفيدا، ولما لم يكن الكتاب المفيد جدا ممتعا فقد أخذته سنة من النوم. وفي غفوته انتابه الكابوس التالي:

ساد العالم بأسره الاعتقاد بأن «مستر باودلر» مثال الفضائل مجتمعة، وما انفك هذا الاعتقاد يسيطر على الكثيرين، بيد أن سببا رهيبا حمله يوما على أن يشك فيما إذا كان يمثل حقا كل ما توسمه فيه جيرانه من صفات حميدة.

وكان «باودلر» قد شن، في شبابه، حملة ضارية على ويلكس «الممثل لويكلس والحرية» الذي كان يعتبره فاسدا داعرا، والذي كان وقتها قد تخطى ربيع الحياة، ولم يعد قادرا على الانتقام الذي كان أمرا طبيعيا بالنسبة له في السنين الخوالي، ومن هناك ترك للشاب «سبفكنز» في وصيته قدرا وافرا من المال بشرط أن يجلب الدمار على رأس مستر باودلر بكل ما أوتي من قوة. ويؤسفني القول أن مستر « سبفكنز» قبل التركة الحقيرة بلا تردد.

وبغية تنفيذ ما انطوت عليه وصية «ويلكس» من شروط زار سبفكنز مستر بوادلر، تحت ستار الصداقة الزائفة فرآه ينعم بغبطة عارمة وبهناء تام بين أفراد أسرته. كان يحمل فوق كل من ركبتيه طفلا وهو يردد: «امتط حصانا خشبيا إلى محطة بانبوري كروس». وسرعان من أخذ الطفلان الآخران يصيحان: «لقد جاء دورنا يا أبانا». فاستمتعنا بدورهما، بفترة من التأرجح والمرح. أما مسز باودلر البدينة الحسنة الطويلة، من لا تبرح الابتسامة شفتيها، فراحت تراقب المشهد السعيد وقد انهمكت في إعداد الشاي.

وبتلك اللباقة الرائعة التي حملت مستر ويلكس على اختياره، قاد سبفكنز الحديث إلى الموضوعات الأدبية التي كانت تدفع ذلك الرجل النبيل إلى تعديل مؤلفات كبار الكتاب لتكون على نحو يسمح بتداولها بين الفتيات. وظل الوئام مخيما حتى نهض مستر سبفكنز لينصرف عقب احتساء الشاي، وبعد أن رأى مسز باودلر عبر باب المطبخ وهي تغسل أقداح الشاي، وعند انصرافه بادره بالقول:

« عزيزي باودلر، لقد تأثرت بما تنعم به من هناء عائلي، لكن بعد

دراستي المستفيضة المدققة لما حذفته من أعمال شاعر آفون » لا يسمعني إلا أن أستنتج أن هؤلاء الأطفال الباسمين مدينون بوجودهم للتناسل العذري.

فاستشاط السيد باودلر غضبا وصاح: «أخرج ». وصفق الباب في وجهه، لكن وا أسفاه!، لقد تناهت الكلمة البشعة إلى سمع مسز باودلر رغم قرقعة أقداح الشاي، ولم تكن تفقه مغزاها، فدفعها جهلها بها وما أبداه زوجها من اعتراض، إلى الاعتقاد بأنها كلمة نابية ولا ريب.

ولم تكن كلمة من الكلمات التي يمكنها أن تستفسر عن معناها من زوجها، ولو فعلت لكان الجواب الوحيد هو: «يا عزيزتي، أنها تعني ما لا يخطر ببال النساء الصالحات»، ومن ثم لجأت إلى أساليبها الخاصة. كانت تلم بكل ما يتعلق بالجزء الأخير من الكلمة «Genesis» أما مقطعها الأول فظل خافيا عليها. وذات يوم تسللت، في جرأة بالغة، إلى مكتبة زوجها في غيبته، وجذبت القاموس الكلاسيكي وراحت تقرأ كل ما ذكر حول المقطع «Parthenon» بيد أنها لم تفقه معنى تلك الكلمة الغريبة إذ لم يكن ثمة علاقة مطلقا بين مقطعيها.

وكان كلما باء بحثها بالفشل، استبد بها الأمر فغدت أعمال البيت التي كانت تزاولها على الوجه الأكمل مهملة غير متقنة. واستغرقت في التفكير حتى نسيت أعداد «الجمبري» مع الشاي يوم الأربعاء، مع أن ذلك لم يغب عن بالها يوما واحدا من أيام الأربعاء منذ اليوم السعيد الذى ارتبطت فيه مستر باودلر بروابط القران المقدسة.

وبلغت الأمور حدا دفع مستر باودلر إلى طلب المعونة الطبية، وأخذ الطبيب يطرح أسئلة لا حصر لها، ويقرع جبهة مسز باودلر بمطرقة

خشبية صغيرة، ويتحسس الأجزاء المتورمة من جسدها، ثم أخذ عينة من دمها، ولما منيت تلك الجهود بالفشل قال الطبيب في النهاية:

«حسنا، أخشى يا سيدتي العزيزة، ألا يكون ثمة دواء لما تشكين منه سوى «edax rerum» (لفظ متحذلق يطلقه على الزمن) فعلينا أن نتطلع إلى الزمن الشافي العظيم»

فانبرت مسز باودلر تقول «ألا تفضلت، أيها الطبيب العزيز بأن تدلني على مكان هذا الدواء؟»

فأجاب الطبيب: «من أي مكان».

ومع أنها لم تكن تثق كثيرا بحكمته إذ لم تكتشف له، على أية حال، عن مصدر الداء، فقد مضت إلى صيدلي الأسرة وسألته عما إذا كان بوسعه أن يعطيها الدواء فتضرج وجهه خجلا وقال متلعثما «ليس هذا، يا سيدتي، ما يجمل أن تطلبه النساء المهذبات».

فعادت أدراجها تستبد بها الحيرة والاضطراب.

وكانت إذا فشلت في أمر دفعتها حالتها اليائسة لتجرب آخر، ولما كان من مهام زوجها أن يطالع كتبا من النوع الذي يرغب في أن يطمس معالمه، فقد أخذت تفحص قوائم الكتب المرصوصة فوق مكتبه، ووقع بصرها على اسم وعنوان من حسبت، على أساس ما بعث إلى مستر باودلر من مواد أنه يملك كتابا حول موضوع رهيب كالذي يشغل بالها. وبعد أن حجبت وجهها بنقاب كثيف، خاطرت بالذهاب إلى داره، وقالت له في جرأة:

«أريد يا سيدي، كتابا يرشدني حول التناسل العذري»

فأجاب وهو يراقب مفاتنها التي يخفيها نقابها: «إن التناسل

العذري يا سيدتي، هو ما لن تتعلمي شيئا عنه لو صحبتني إلى الطابق العلوي».

فلاذت بالفرار هلعة ملتاعة.

ولم يبق أمامها سوى أمل واحد، أمل يتطلب قرارا حاسما وشجاعة لم تكن تؤمن بأنها من خصالها. تذكرت أن زوجها، في سبيل اتمام كتاب «شكسبير الأسرة». الذي يعد نعمة لكل أسرة محافظة محتشمة، قد اضطر إلى أن يقرأ: وهي مهمة شاقة ولا شك، الكتب غير المنقحة لذلك المؤلف المتحرر بصورة تدعو إلى الأسف. كما كانت تعلم أنه يملك، خلف الأبواب الموصدة لدولاب كتب معين، كتابا عن شكسبير كتب قبل باودلر، حيث وضع تحت الفقرات التي ارتأت حكمته حذفها، خطوطا لتيسير مهمة عامل الطباعة. وطفقت تفكر «لا مراء في أنني سأعثر في الفقرات الكثيرة المخططة التي حذفت، على لفظ « التناسل العذري». ولسوف يتضح معناها من سياق الكلام.

وذات يوم دعى زوجها لإلقاء خطاب في مؤتمر بائعي الكتب الأفاضل، فتسللت إلى مكتبه وعثرت على مفتاح دولاب الكتب الموصد بعد البحث في مكتبه، وفتحت الأبواب المشئومة، وتناولت كتابا باليا بما يحوي من قصص مريعة، وراحت تقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى، فلم تعثر على الكلمة المنشودة، بل عثرت على كثير مما لم تكن تبحث عنه، ومضت تقرأ دون حساب للزمن، وقد استبد بها الإحساس بالفزع رغم المتعة، وبالثورة رغم الانهماك. وبينما هي مستغرقة إذ بالباب يفتح، على حيث غرة، ويقف زوجها بالمدخل وبلهجة تنم عن الفزع والهلع صاح بها:

«يا إلهي، أي كتاب آراه بين أناملك يا ماريا؟ ألا ترين السم يتقاطر من صفحاته، وعدوى الأفكار الفاسدة تنتقل من كل حرف من حروفه إلى عقل الأنثى غير المضمون؟ وهل غاب عن بالك أن مهمتي في الحياة هي صون الأبرياء من مثل هذا الدنس والفسق؟ يا له من فشل ذريع منيت به في عقر داري»

وهنا انفجر الرجل الطيب باكيا وانهمرت الدموع من عينيه. دموع الإحساس بخيبة الأمل والأسى والغضب البرئ، وفجأة أحست بخطيئتها، فألقت بالكتاب جانبا وهرولت إلى غرفتها وهي تنفجر في نشيج تتقطع له نياط القلب.

ولم يكن لما اعتراها من ندم فائدة، لقد قرأت أكثر مما ينبغي ولن تنسى منه كلمة واحدة، وراحت تلح على ذهنها كلمات مخزية، وصور مفزعة للملذات البشعة. وأخذت حالتها تتفاقم ساعة بعد الأخرى ويوما بعد يوم حتى أصيبت بمس من الجنون اضطروا معه إلى نقلها إلى مستشفى الأمراض العصبية، وهي تردد فضائح شكسبير على الملأ. وما أن خفتت كلماتها حتى جثا مستر باودلر على ركبتيه يسأل خالقه عما اقترفه من ذنوب يستحق عليها مثل هذا العقاب. لكنه لم يتلق جوابا، على النقيض منك ومني.

■ ■ ■

حلم عالم

ميتافيزيقي



تبين لي أن صديقي المسكين «أندريه بومبلوفسكي» أستاذ الفلسفة السابق بإحدى جامعات وسط أوربا التي اندثرت اليوم، يعاني ضربا من الجنون لا ضرر منه، بينما اتسمت أنا بمنطق قوي، ولا أرى أن يتخذ العقل مرشدا في الحياة بل وسيلة تساعدنا في مبارياتنا الجدلية المسلية، وتزودنا بأساليب لمضايقة خصومنا الذين هم دوننا ذكاء وسرعة بديهة، ولم يكن بومبلوفسكي يشاركني هذا الرأي فأطلق العنان لعقله يقوده كيفما شاء، مما أسفر عن نتائج تدعو إلى الدهشة والعجب. كان من النادر أن يجادل أو يحاور فظلت أسس آرائه ومبادئه غامضة في نظر السواد الأعظم من خلانه. ولم يكن أحد يعرفه إلا بعزوفه الدائب عن استخدام لفظ «لا» ومرادفاته، فلم يكن يقول » هذه البيضة ليست طازجة «بل» إن تغييرات كيمائية قد طرأت على هذه البيضة منذ وضعها «ولا يقول» لا أستطيع أن أعثر على هذا الكتاب «بل» إن الكتب التي عثرت عليها غير التي أريدها ولا يقول «لا تقتل» لا «تمسك بالحياة». ومن ثم لم تكن حياته عملية بيد أن البراءة كانت طابعها المميز، ولذا أحسست نحوه بحب عارم. ذلك الحب هو الذي فتح فاه، ولا ريب، وحمله على أن يروي لي التجربة الرائعة التالية

التي أنقلها بحذافيرها كما جاءت على لسانه:

انتابتني ذات يوم حمى بالغة الخطورة كادت تودي بحياتي، دهمتني أثناءها ولفترة طويلة نوبة من الهذيان المستمر، وحلمت أنني في الجحيم وأن الجحيم غاص بأحداث غير محتملة الوقوع ولكنها ليست مستحيلة، مما أسفر عن نتائج أثارت الدهشة والعجب. فلقد توهم بعض من حلت عليهم اللعنة، لدى بلوغهم قاع الجحيم أن بوسعهم التغلب على الأبنية بلعب الورق، لكن سرعان ما تبينوا أن ذلك أمر عسير، لأنهم كلما خلطوا الورق ظهر منتظما تماما مبتدئا من الآس ومنتهيا بملك القلوب «الشايب». وبالجحيم قسم يضم دارسي نظرية الاحتمالات ويحتوي على عدد كبير من الآلات الكاتبة والقردة التي كلما سار أحدها فوق إحدى هذه الآلات انطبعت إحدى قصائد شكسبير الغزلية. وثمة مكان آخر لتعذيب علماء الطبيعة به مراجل ونيران، لكن ما أن توضع المراجل فوق اللهب حتى يتجمد ما بها من ماء. وهناك حجرات خانقة للأنفاس عزف علماء الطبيعة، بحكم خبرتهم، عن فتح أية نافذة فيها، إذ لو حدث ذلك لاندفع كل ما بها من هواء إلى الخارج وأضحت الحجرات مفرغة من الهواء، هذا إلى جانب مكان للخبراء في ألوان الطعام والشراب، حيث كان يسمح لهم بأشهى الأغذية وأمهر الطهاة. لكن ما أن تقدم لهم شرائح اللحم المقدد ويقضمون منها ملء أشداقهم حتى يتبينوا أن مذاقها كبيضة فاسدة ولو أرادوا أكل بيض لكان بدوره أشبه ما يكون بقطعة من البطاطس أصابها العطب.

أما العذاب المبرح فكان من نصيب غرفة لا يقطنها سوى الفلاسفة الذين عارضوا فلسفة «هيوم» وفندوها، أولئك الفلاسفة الذين لم يتعلموا الحكمة رغم وجودهم في الجحيم وما انفك يسيطر عليهم ميلهم الفطري إلى الاستقراء، لكن كلما قاموا باستقراء ثبت بطلانه في اللحظة التالية،

وهذا لا يحدث إلا في السنوات المائة الأولى من عذابهم يتعلمون بعدها احتمال تكذيب أي استقراء، ومن ثم لا يفند الاستقراء إلا بعد أن يغير هذا الاحتمال قرن آخر من العذاب المنطقي، وهكذا تستمر المفاجآت طيلة الأبد رغم كونها في كل مرة على مستوى من المنطق يفوق سابقتها.

وهناك جحيم الخطباء الذين دأبوا، وهم على قيد الحياة، على استخدام بلاغتهم في التأثير على الجماهير. ومع أن هذه البلاغة لم تفقد قوتها ولم تنفض الجماهير الغيرة من حولهم، فإن رياحا غريبة كانت تعبث بالأصوات فلم يتناه إلى سمع الجماهير غير عبارات مبتذلة جوفاء مغايرة لما يفوه بها الخطباء.

ويحتل الشيطان مكانة في قلب مملكة الجحيم. ولا يسمح للمثول في حضرته إلا للبارزين من الملعونين. وعند الاقتراب من الشيطان تبرز الأمور البعيدة الاحتمال وتزداد شيئا فشيئا فالشيطان نفسه هو الاستحالة التامة التي يتصورها أي عقل، فهو العدم المجرد، اللاوجود التام، مع أنه يتغير باستمرار.

وبفضل ما لي من شهرة فلسفية تقدمت صفوف من التقوا «بأمير الظلام» لقد قرأت عن الشيطان أنه روح السلبية، لكن ما أن دلفت إلى حضرته حتى أدركت في فزع أن للشيطان جسما سلبيا وله عقل سلبي على حد سواء. أما جسم الشيطان فهو في الواقع، فراغ مجرد تام خال لا من ذرات المادة فحسب بل من ذرات الضوء أيضا. وما يبقى على فراغه هي ذروة الاستحالة. فكلما دنت ذرة من سطحه الخارجي، اصطدمت بالصدفة بذرة أخرى تحول دون تغلغلها في منطقة الفراغ. وبما أن الضوء لا ينفذ إلى هذه المنطقة أبدا فإنها حالكة السواد. وهي في سوادها لا تقارن بالأشياء التي نخلع عليها هذا اللفظ دون تدقيق، إذ هي سواد مطلق تام لا نهائي، فهي ذات شكل، والشكل الذي اعتدنا أن ننسبه إلى الشيطان عبارة

عن قرون وأظلاف وذيل وما شابه ذلك، أما بقية الجحيم « الجسم » فيحف بها لهيب معتم حيث يقف الشيطان في أبهة رهيبة، ولا يثبت الشيطان في مكانه، فالفراغ الذي يتكون منه دائب الحركة، وإن ضايقه امر من الأمور نشر الرعب من ذنب مطوى أشبه ما يكون بقطة هائجة. وينطلق في بعض الأحيان ليغزو مناطق جديدة، وقبل أن نطلق يسربل نفسه بعدة حربية بيضاء براقة تخفي تماما ما بداخلها من عدم، ولا تظل مكشوفة سوى عينيه تنطلق منهما أشعة العدم الثاقبة باحثة عن فريسة جديدة. وأينما وقعت عيناه على السلبية، ووجدت التحريم، وحيثما اكتشفت مذهب اللاعمل، تغلغلت في كيان أولئك الذين هم على استعداد لقبول الشيطان. وكل سلبية إنما تنبثق منه ثم تعود بحصيلة من خيبة الآمال المسلوبة فتصبح هذه الخيبة جزءا منه تزيد من حجمه على نحو يهدد معه بأن يملأ الفراغ بأسره وكل آخلاقي تتكون أخلاقياته من الأمر والنهي وكل جبان «يغلب التردد على العزم» وكل طاغية يجبر رعاياه على أن يعيشوا في هلع، كل هؤلاء يصبحون بعد مدة من الزمن جزءا من الشيطان.

وتحيط به جماعة من الفلاسفة المتزلفين الذين استعاضوا عن مذهب إلوهية الشيطان بمذهب وحدة الوجود، ويعتقد هؤلاء أن لوجود ظاهري فحسب، أما اللاوجود فهو الحقيقة الخالصة لوحيدة، ويحدوهم الأمل في أنهم سيخلقون على اللاوجود مظهرا محددا في الوقت المناسب إذ في تلك اللحظة سوف نجد أن ما نعتقده وجودا في الوقت الراهن لا يزيد في حقيقته عن كونه جزءا منفصلا عن الجوهر الشيطاني. ورغم ما أظهره علماء الميتافيزيقا «ما وراء الطبيعة» هؤلاء من حذق ومهارة بالغين، إلا أنني لم أسلم بوجهة نظرهم. فقد اعتدت، وأنا على الأرض، أن أناهض كل سلطة طاغية مستبدة، ولازمتني هذه العادة في الجحيم، ومن ثم رحت أحاور المتحذلقين في الميتافيزيقا وأجادلهم.

واعترضت قائلا: «إن ما تبدونه يتسم بالسخف، فأنتم تعلنون أن اللاوجود هو الحقيقة الوحيدة وتزعمون أن هذه الحفرة السوداء التي تعبدونها موجودة، وتحاولون إقناعي بأن اللاوجود موجود، لكن في هذا تناقضا، ومهما اشتد لهب الجحيم فإنني لن أحط من قدر تفكيري المنطقي إلى الحد الذي أقبل معه هذا التناقض».

وهنا أمسك رئيس المتحذلقين بخيط الجدل وراح يقول: «إنك تمر يا صديقي على الحقائق مر الكرام، آأنت تنكر أن اللاموجود موجود؟. لكن ما هذا الذي تنكر وجوه؟ فإن كان اللاموجود عدما فإن أي رأى يتعلق به هراء. وهذا ما ينطبق على قولك أنه غير موجود. أخشى أنك لا تبدي اهتماما كبيرا بالتحليل المنطقي للعبارات الذي كان ينبغي أن تتلقنه وأنت فتى يافع، ألا تعلم أن لكل جملة مضمونا، فإن كان المضمون عدما باتت الجملة هراء؟. وهكذا حين تزعم، بحماس بالغ، أن الشيطان – اللاموجود – غير موجود، فإنك ببراءة تناقض نفسك».

فأجبت: «لا مراء في أنك في المكان منذ زمن، وأنك ما زلت تتمسك بنظريات قديمة. من الثرثرة أن تقول أن للعبارات مضمونا، بيد أن هذا اللون من الحديث قد عفى عليه الزمن وحينما أقول أن الشيطان، الذي لا وجود له، غير موجود فاني لا أذكر الشيطان ولا اللاوجود بل اللفظ «شيطان» واللفظ «لا وجود » فحسب، لقد كشفت لي مغالطاتكم حقيقة كبرى، وهي أن اللفظ «لا» لا داعي له. ومن ثم فلن استخدم هذا اللفظ».

وعندئذ انفجر علماء الميتافيزيقا المجتمعون ضاحكين وحين هدأت موجة الضحك قالوا: «أصغوا كيف يناقض هذا الإنسان نفسه وانصتوا إلى وصيته العظمى بتجنب النفي، وإلى تأكيده بأنه لن يستخدم كلمة «لا»».

وبرغم الإساءة التي وجهت إلى، كبحت جماح نفسي، ولما كنت أحمل في جيبي قاموسا رحت أحذف منه كل ما يعني النفي، وقلت: «لن يكون حديثي إلا بالكلمات الباقية، التي بها سوف أتمكن من وصف كل شئ في الكون، وستكون أوصافي متعددة، غير أنها ستكون عن أشياء أخرى غير الشيطان، لقد ساد الشيطان طويلا هذا العالم الجهنمي. وكان درعه الوضاء يبعث الرعب في النفوس ولكن لم يكن تحت هذا الدرع سوى عادة لغوية ذميمة وتجنب اللفظ «لا» يضع نهاية لإمبراطوريته.

ولما احتدم الجدل، لوح الشيطان بذنبه في هياج متزايد، فانبعثت من عينيه الغائرتين أشعة الظلام المرعبة، لكن ما أن فضحت أمره ووصفته بأنه عادة لغوية سيئة حتى حدث انفجار مروع واندفع الهواء من كل حدب وصوب، واختفى الشكل المرعب. وانجلى هواء الجحيم المعتم بسبب أشعة العدم الكثيفة كما لو كان يفعل السحر. وتبين أن ما لاح كأنهم قردة إلى جانب الآلات الكاتبة ليسوا سوى نقاد في ميدان الأدب وراحت المراجل تغلي وورق اللعب يختلط، كما أخذ الهواء العليل يهب من النوافذ وعاد لشرائح اللحم مذاقها الطبيعي. وفي غمرة الإحساس بالحرية الرائعة استيقظت من نومي، ورأيت أن حلمي – وإن كان يرتدي قناع الهذيان – إلا أنه ينطوي على حكمة بالغة. ومن تلك اللحظة خفت وطأة الحمى. أما الهذيان، كما قد يبدو لك، فقط ظل مستمرا.

■ ■ ■

اصنع مستقبلك

ينتاب بعض الناس رغبة عارمة في إصلاح المجتمع، ويمد يد العون في خدمة الجنس البشري، ولكنهم في حيرة من أمرهم وتضيع محاولاتهم عبثا فيتملكهم اليأس والإحباط وأولئك الذين يرغبون في ذلك أشد الرغبة يكون شعورهم بالعجز أقسى ويكونون أقرب للوقوع فريسة للانهيار النفسي بسبب فشلهم.

وربما يفكر البعض في المستقبل القريب فقط فإن ما تستطيع عمله يبدو ضئيلا. والغالب أنه من المستحيل أن نضع حدا للحرب القائمة. ولن نستطيع القضاء على السلطان المفرط الذي تتمتع به الدولة والملكية الخاصة كما أنه ليس في مكنتنا أن نبث روحا جديدا في التعليم خلال أيام قليلة. ففي مثل هذه المسائل قد نرى الضرر ولكننا لن نستطيع أن نفعل شيئا للقضاء عليه سريعا بالوسائل السياسية العادية. ويجب علينا أن نسلم بأن العالم يحكم اليوم بروح خبيث غير الروح الذي ينبغي أن يحكم به، وأن تغيير هذا الروح أمر لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة. أن أملنا يجب ألا ينصب على الغد القريب ولكن على الوقت الذي يصبح فيه ما يؤمن به الآن عدد قليل من الناس اعتقادا شائعا يؤمن به الكثيرون. فإذا توفرت لدينا الشجاعة والصبر لجعلنا من الأفكار التي

تراودنا والآمال التي تدور بصدورنا حافزا يلهم الناس فيصبح الفتور واليأس نشاطا وهمة. لذلك كان أول ما ينبغي علينا عمله هو أن نحدد في أذهاننا تحديدا واضحا نوع الحياة التي نعتقد أنها خير للبشر، ونوع التغيير الذي نريد إحداثه في هذا العالم.

إن الأفكار الحديثة عن هذا العالم الذي نعيش فيه لا تتفق تماما وهذا التسليم الذي لا يكلف صاحبه عناء، فهي تتطلب عزلة ذهنية من نوع معين، ومجهودا موحدا من نوع خاص، وقوة الإحساس الداخلي بالسيطرة على الدنيا وما تتمخض عنه من أحداث. إننا لا نستطيع أن نصل إلى فكرة جديدة إلا إذا رضينا إلى حد ما بالوحدة. ولن يكون لهذه الخلوة من فائدة إذا اختلط معناها بالترفع والاعتزال بحيث تموت في الإنسان الرغبة في الاتحاد مع الآخرين، أو إذا تحولت العزلة الذهنية إلى ازدراء. والسبب في ندرة التفكير المثمر في الشئون الإنسانية، وفي أن الجمهرة من أصحاب النظريات هم إما من المحافظين على التقاليد وإما من الذين أدركهم العقم، هو أن المنزلة التي نريد أن يبلغها عقل الإنسان منزلة دقيقة صعبة المرتقى، وأن ما نريده له من خلوة ذهنية تقطعه عن العالم، شيء ليس يسير التحقيق. إن هذا النوع من الفكر السليم نادر وصعب ولكن لا يعجز عن أن يؤتي ثماره، فلا داعي إذن لأن يقعدنا الخوف من العجز عن أن نفكر، إذا توفرت لدينا الرغبة في أن نأتي بأمل جديد إلى هذا العالم.

لهذا كان التفكير المثمر هو التفكير الذي يرشدنا إلى الاتجاه الصحيح في الوقت الحاضر. وثمة مبدآن عامان يصلحان دائما للحكم على أي الاتجاهات هو الاتجاه الصحيح، أما هذان المبدآن فهما:

1. وجوب العمل على تشجيع النمو والحيوية لدى الأفراد والجماعات إلى أقصى حد ممكن.

2. وجوب مراعاة ألا يكون نمو جماعة أو فرد على حساب جماعة أخرى أو فرد آخر إلا إلى أقل قدر ممكن.

والمبدأ الثاني من هذين المبدأين، عندما يطبقه الفرد في معاملاته مع الناس، هو مبدأ «الاحترام» الذي يعني أن حياة أي شخص آخر لها نفس الأهمية التي نعلقها على حياتنا. وهو نفسه عندما يطبق بطريقة غير شخصية في الشئون السياسية، مبدأ الحرية، أو على الأصح يكون مشتملا على مبدأ الحرية كجزء منه. والحرية في ذاتها مبدأ سلبي، فهي تتطلب منا ألا نتدخل في شئون الغير، ولكنها لا تهيئ لنا أساسا نبني عليه. فهي ترينا أن كثيرا من النظم السياسية والاجتماعية لا خير فيها، ولكنها لا تدلنا على ما ينبغي أن نحله محلها. ولهذا السبب كان علينا أن نجد مبدأ آخر يكمل مبدأ الحرية، إذا كنا لا نريد أن تكون نظريتنا السياسية معولا للهدم فقط.

إن جوهر النمو في الإنسان لا يقضي عليه، بالضرورة الحيلولة بينه وبين عمل شئ معين، ولكن الذي يقضي عليه هو إرغامه على أن يعمل شيئا آخر. وإن ما يحطم النمو هو الأشياء التي تولد في النفس الشعور بالعجز في المجالات التي تصبو النزعة الحيوية إلى أن يكون لها أثرها فيها. وأسوأ هذه الأشياء هو ما تقبله الإرادة، فكثيرا ما يحدث بسبب جهل المرء حقيقة نفسه، أن تكون إرادة الإنسان في مستوى أقل من نزعته، فتكون نزعته تواقة للخلق، بينما إرادته تهدف نحو حياة عادية تكفل له دخلا يكفيه، كما تكفل له احترام معاصريه: صورة للحياة

المهنية الطبية وضعت أمام عينيه وهي لا تزيد في حقيقتها عن تلك الصور الرخيصة التي ينتجها فنان لإرضاء الجمهور. هذا في حين أن كثيرا من الناس ممن ليسوا فنانين فيهم شئ من النزعة لمحددة المعالم التي لدى الفنان الأصيل، ولأن النزعة مستقرة في أعماق النفس لا يرتفع لها صوت، ولأن ما يسمونه بالرأي السليم يكون عادة ضدها، ولأن الشباب في مستهل حياته لا يستطيع أن يتبع نداء نزعته إلا إذا كان مستعدا لأن يفضل إحساساته الغامضة غير المؤكدة على حكمة الشيوخ وحنكتهم ونصائح الأصدقاء، تكون النتيجة أنه في تسعة وتسعين في المائة من الحالات تتحطم من مبدأ الأمر النزعة الإنشائية التي كان من الممكن أن تنبثق منها حياة حرة مليئة بالحيوية. فيرضى الشاب أن يكون آلة بدلا من أن يكون عاملا، أن يكون وسيلة يستعملها الآخرون لتحقيق أغراضهم بدلا من أن يعمل ما تصبو إليه طبيعته هو وفي اللحظة التي يرضى فيها بهذا الوضع يموت شئ في نفسه ولن يستطيع بعد ذلك أبدا أن يصبح رجلا مكتملا، ولن يعود إليه أبدا احترامه لنفسه كاملا، ولا هذه الكبرياء الكريمة التي ربما كانت قد أبقت على سعادته الروحية على الرغم من المصاعب والمزعجات الخارجية، إلا إذا بدل من طريقة حياته وأدخل عليها تغييرا أساسيا.

إن أوامر التحريم التي تأتي من الخارج، والتي لا تستجيب لها إرادة الإنسان، لأقل ضررا بما لا يقاس من المؤثرات الخفية المتسللة التي تضل الإرادة وتغريها. إن فشل الشاب في حب عميق قد يحز في نفسه ويؤلمه ألما شديدا، ولكن الضرر الذي قد يحدثه الإخفاق في الحب لشاب مملوء حيوية لا يقاس بالضرر الذي يصاب به إذا تزوج من أجل المال. إن تحقيق هذه الرغبة المعينة أو تلك ليس هو المهم: ولكن

المهم هو الاتجاه، هو نوع الفاعلية التي يسعى إليها، فعندما تقف الإرادة في وجه النزعة، تصبح النزعة عاجزة، إذ تفقد الأمل الذي يجعل منها قوة دافعة. والإرغام الذي يأتي من الخارج لا يترك هذا الأثر الضار، إلا إذا نتج عنه نفس الشعور بالعجز، ولن ينتج عنه هذا الشعور إذا كانت النزعة قوية جريئة. إن ما يصيب رغبات الإنسان الخاصة من خيبة أمل لا يمكن تجنبه حتى في أحسن مجتمع ممكن تصوره، ما دامت رغبات بعض الناس تؤدي إلى اضطهاد الآخرين وفنائهم. وفي أي مجتمع فاضل ما كان يسمح لنابليون أن يحترف المهنة التي اختارها لنفسه، ولكنه ربما كان وجد السعادة كرائد من الرواد في غرب أمريكا، ولم يكن ممكنا أن يكون سعيدا لو أنه عمل كاتبا في المدينة. وليس ثمة نظام اجتماعي محتمل يرغمه على أن يكون كاتبا في المدينة.

ويتطلب تناسق حياة الفرد أن تجمع حياته بين ما قد يكون لديه من نزعات إنشائية وبين تعليم يعمل على الكشف عن هذه النزعات. ويتطلب تناسق المجتمع أن تشترك النزعات الإنشائية المختلفة لدى أشخاص مختلفين في العمل معا نحو نوع من الحياة المشتركة، أو هدف مشترك يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع ما يساعده على تحقيق غايته. وتتكون معظم أنواع النشاط المنبعثة من نزعات حيوية من جزأين: أحدهما إنشائي، وهو الذي يعمل على نمو الشخص نفسه، والأشخاص الآخرين الذين لديهم نفس النزعة أو نفس الظروف، والثاني اقتنائي وهو الذي يعرقل حياة الآخرين ممن لديهم نزعات أو ظروف مختلفة. ولهذا قد يكون جزء كبير من القوى الحيوية الخالصة أداة تعمل ضد الحياة، كما فعلت حركة البيوريتان في انجلترا أبان القرن السابع عشر مثلا، أو كما تفعل القومية في أوربا كلها اليوم. فمن السهل أن تؤدي الحيوية إلى

النزاع والظلم وبالتالي إلى ضياع الحيوية. وتعمل الحروب عندما تندلع نيرانها على توحيد الشعب وتنسيقه ولكنها تعمل على انحلال العالم، وبمضي الزمن، تعمل على انحلال الشعب نفسه، إذا كانت حربا شديدة الوطأة كالحرب الحالية.

ويمكن تقسيم نزعات الناس ورغباتهم إلى إنشائية واقتنائية، إذ أن بعض نشاطنا موجه لخلق أشياء غير موجودة ،وبعضه موجه نحو الحصول على أشياء موجودة أو الاحتفاظ بها. إن النزعة الإنشائية المثالية هي نزعة الفنان، وأحسن مثل للنزعة الاقتنائية هل الملكية. وأفضل حياة هي التي تلعب لنزعة الإنشائية فيها الدور الأكبر، والتي تؤدي إلى أكبر قدر ممكن من الإنشاء، وإلى أقل قدر ممكن من الاقتناء الذي يتفق والمحافظة على النفس إذ أن الاقتناء قد يكون لغرض الدفاع كما قد يكون لغرض التعدي، فهو في القانون الجنائي عنصر دفاعي، وعند المجرمين أداة تعدي. وقد توافق على أن القانون الجنائي أقل فظاعة من المجرم، وأن الاقتناء الدفاعي لا يمكن تجنبه طالما كان هناك اقتناء اعتدائي، إلا أنه حتى الاقتناء الدفاعي البحت في أنقى صوره ليس في ذاته مدعاة للإعجاب، إذ في اللحظة التي تصبح فيها العوامل الاقتنائية على شيء من القوة تصير معادية للنزعات الإنشائية، إن أيا ممن عرفوا النزعة الإنشائية القوية تبينوا قيمة هذه الوصية التي تقول: «لا تفكر فيما ستأكل أو تشرب أو ماذا تلبس» بمعناها الحرفي الدقيق: إن الانشغال بالاقتناء هو الذي يمنع الناس من الحياة الحرة النبيلة. والدولة والملكية هما الرمزان الكبيران للاقتناء، ولهذا السبب فهما يعملان ضد الحياة، ونتيجتهما الحرب. فلاقتناء هو أخذ شيء أو الاحتفاظ به ومنع الآخرين من التمتع به، والانشاء هو إضافة شيء جميل إلى الدنيا فيتمتع

به الناس لوجوده. ولما كانت العروض المادية في الدنيا يجب أن توزع على الناس، ولما كان بعض الناس بطبيعتهم مغتصبين، فلابد من وجود الاقتناء الدفاعي الذي ينبغي تنظيمه في المجتمع الفاضل على أساس من العدالة الخالصة. ولكن كل هذا ليس سوى مظهر للحياة الفاضلة أو النظام السياسي الفاضل، حيث يزيد الانشاء في جملته على الاقتناء وتصبح العدالة بين الناس هي الأمر الطبيعي.

وينبغي أن يكون المبدأ السائد في السياسة وفي الحياة الخاصة هو العمل على تنمية كل ما هو إنشائي، وبالتالي الإقلال من النزعات والرغبات الاقتنائية. والدولة في شكلها الحالي رمز للنزعات الاقتنائية إلى حد بعيد، فهي في الداخل تحمي الغني ضد الفقير، وفي الخارج تستعمل القوة لاستغلال الشعوب الضعيفة ولمنافسة الدول الأخرى. ونظامنا الاقتصادي كله قائم على الاقتناء وحده، ومع ذلك فإن إنتاج السلع إنشاء، ولولا أنه عمل آلي بحت وممل لكان من الممكن أن يصبح أداة لتنشيط النزعة الإنشائية، ويمكن أن نجني كثيرا في هذا الاتجاه لو أن منتجي كل سلعة كونوا نوعا من المجتمع الديمقراطي المستقل فيما بينهم، تحت إشراف الدولة، فيما يختص بثمن السلعة لا في طريقة إنتاجها

أما التعليم والزواج والدين فيه في أساسها أمور إنشائية، ولكن تدخل الدوافع الاقتنائية أفسدها جميعا. فالتعليم يعتبر عادة وسيلة لإبقاء الحالة على ما هي عليه، وذلك بغرسه للتحيز، بدلا من خلقه للفكر الحر وللنظرة النبيلة للأمور، عن طريق إيجاد المشاعر الكريمة وبث روح المغامرة العقلية. وفي الزواج نجد الحب، وهو إنشائي، مقيدا بسلاسل الغيرة وهي اقتنائية. والدين الذي ينبغي أن يعمل على تحرير التصور

الروحي الإنشائي، يوجّه جهوده إلى كبت حياة الغريزة ومكافحة الفكر الهدام. وفي كل ما تقدم يحل الخوف الناشئ عن عدم ثبات الملكية محل الأمل الذي توحي به القوى الإنشائية. ونحن نعلم أن الرغبة في اغتصاب مال الغير شيء من الوجهة النظرية. ولكن خوف الناس من أن يغتصب مالهم لا يقل سوءا. ومع ذلك فإن هذين الدافعين يتحكمان فيما بينهما في تسعة أعشار الشئون السياسية والحياة الخاصة.

إن النزعات الإنشائية لدى مختلف الناس متناسقة أصلا، إذ أن ما ينشئه شخص لا يمكن أن يكون عائقا في سبيل ما يرغب شخص آخر في إنشائه. والنزعة الاقتنائية هي التي تسبب النزاع، وعلى الرغم من أن النزعتين الإنشائية والاقتنائية متضادتان من الناحية الخلقية والسياسية إلا أنهما من الناحية السيكولوجية متقاربتان، فقد تنقلب أي منهما فتصبح الأخرى حسب الحوادث والظروف والفرص. وينبغي دراسة تكوين النزعات والأسباب التي تعمل على تحويلها، كما يجب أن نعمل على أن يكون التعليم والنظم الاجتماعية بحيث يدعمان النزعات المتجانسة عند مختلف الأشخاص. وبحيث يضعفان تلك التي ينشأ عنها صدام. وأنا لا أشك أن ما يمكن تحقيقه في هذا الاتجاه لا يكاد يقف عند حد.

إن النزعة لا الإرادة هي التي يمكن أن تستمد حياة الفرد وحياة المجتمع عن طريقها ما للاتجاه الواحد من قوة ووحدة. والإرادة نوعان، أحدهما موجه إلى الخارج والآخر موجه إلى الداخل. والأول تثيره العقبات التي يصادفها الشخص سواء كانت ناشئة عن معارضة أشخاص آخرين أو عن صعوبة فنية في العمل الذي يقوم به الشخص. وهذا النوع من الإرادة هو تعبير عن نزعة أو رغبة قوية عندما يكون النجاح الفوري مستحيلا، وهو يوجد لدى من تتسم حياتهم بالنشاط والقوة، ولا يصيبه

الانحلال إلا عندما تضعف قواهم الحيوية، وهو ضروري للنجاح في الأعمال الصعبة، وبدونه لا يكاد يتم أي عمل عظيم.

أما نوع الإرادة الموجهة إلى الداخل فليس ضروريا إلا إذا كان هناك تضارب داخلي بين النزعات أو بين الرغبات، والشخص ذو الطبيعة المتناسقة تناسقا تاما - وهو أمر يكاد يكون مستحيلا - لا حاجة به إلى هذا النوع من الإرادة. ففي كل الأشخاص تقوم نزعات لا تتفق والهدف الأساسي لكل منهم، ويجب كبت هذه النزعات إذا أريد ألا تصبح حياتهم في مجموعها فاشلة، ولكن هذا أقل حدوثا في الأشخاص الذين تكون نزعاتهم الأساسية أقوى، كما أنه أقل حدوثا في المجتمع الذي يهدف إلى الحرية، منه في مجتمع مثل مجتمعنا المليء بالتضارب المصطنع الناشئ عن نظم عفى عليها الدهر، وعن رأي عام مستبد. إن القدرة على استعمال الإرادة الداخلية، حينما تتاح الفرصة، لابد أن يحتاج إليها دائما أولئك الذين يريدون أن تتضمن حياتهم هدفا أساسيا، إلا أن الحاجة إليها تقل، وتصبح في ذاتها أقل أهمية، في ظل نظم أفضل من النظم الحالية. وهذه النتيجة مرغوب فيها جدا، لأن الإرادة، عندما تكبت نزعات لا يكون ضررها إلا عارضا، تضيع قوة كان أجدى على الإنسان أن يوجهها للتغلب على العقبات الخارجية، وإذا كانت النزعات المكبوتة قوية وجدية فإن قوى حيوية موجودة تضيع هباء. وليس منتظرا أن تظل الحياة المليئة بأنواع الكبت حياة نشطة، بل لابد أن تصبح قلقة خالية من الحماسة وتموت النزعة في الغالب إذا ظلت تكبت باستمرار، وإذا لم تمت فقد تعمل في الخفاء على صورة أسوأ بكثير من تلك التي تكبت. ولهذه الأسباب ينبغي أن نتجنب بقدر الإمكان استعمال الإرادة الداخلية، وينبغي أن يكون التناسق في التصرفات نتيجة لتناسق النزعات

لا لتسليط الإرادة على النزعة.

ويجب ألا يتطلب توحيد الحياة كبت الرغبات العارضة التي ترفه عن الإنسان، بل على العكس من ذلك ينبغي العمل على تيسير الجمع بين الهدف الأساسي في الحياة وكل أنواع الترفيه التي لا تكون ضارة بطبيعتها. فأمثال تلك الأمور التي من قبيل الإدمان على شرب الخمر وتعاطي المخدرات، والرياضة القاسية، والتلذذ بإيلام الغير، جميعها ضارة في ذاتها، ولكن معظم ألوان الترفيه التي يتمتع بها الرجل المتمدين عادة، تكون إما غير ضارة مطلقا، وإما أن يكون ضررها عارضا لسبب من الأسباب التي يمكن تجنبها في مجتمع أفضل. وليس المطلوب هو أن يكون المرء متقشفا أو متطهرا غاليا في الطهر، ولكن المطلوب هو أن تكون لديه القدرة على توجيه نزعاته ورغباته نحو أهداف إنشائي عظيمة. وعندما تكون الرغبات والنزعات التي من هذا النوع نشيطة، فإنها تحمل معها، من ذاتها، كل ما يجعل الحياة طيبة.

وعلى الرغم من أنه يجب أن يكون للترفيه والمخاطرة نصيبها في حياة الإنسان، فإنه يستحيل خلق حياة فاضلة إذا كان هذا الترفيه وتلك المخاطرة هما الهدف الأساسي لهذه الحياة، إذ أن الذاتية أو عادة توجيه الفكر والرغبات نحو حالاتنا العقلية نفسها بدلا من توجيهها نحو موضوع خارج عن أنفسنا، تنتهي بنا إلى أن تصبح حياتنا تافهة قاصرة عن التقدم. والشخص الذي يجعل الترفيه غايته من الحياة، لا يلبث أن يفقد بالتدريج اهتمامه بالأشياء التي تعود أن يستمد منها السرور، لأنه لا يقدرها لذاتها، ولكن لما تثيره في نفسه من إحساسات. وعندما تفقد هذه الأشياء أهميتها بالنسبة له يعتريه السأم، ويبحث عن مثيرات أخرى لا تلبث بدورها أن تفقد أهميتها في نفسه. والترفيه يتألف من مجموعات

من اللحظات التي تمر وليس بينها عنصر استمرار أساسي يربطها، أما الهدف الذي يجعل من الحياة وحدة فهو يتطلب بعض النشاط الطويل المدى، وهو أقرب إلى بناء تمثال ضخم منه إلى بناء قصور على الرمال كما يفعل الأطفال.

«وللذاتية» صور أخرى، فضلا عن البحث عن الترفيه، فكثير من الناس عندما يقعون في الحب تهمهم إحساساتهم الشخصية أكثر مما يهمهم الشخص الذي يحبون ومثل هذا الحب لا يؤدي إلى أي اتحاد حقيقي، بل يترك عوامل التفرقة قائمة على حالها. وحالما تخبو العاطفة فإن العلاقة تكون قد استنفدت أغراضها، ولا يعود ثمة من دافع لاستمرارها. وقد عملت العقيدة البروتستانتية من ناحية، وقواعد الفضيلة من ناحية أخرى على زيادة ضرر «الذاتية» إذ وجهتا اهتمام الناس نحو الخطيئة والحالة الروحية بدلا من توجيهه نحو العالم الخارجي وعلاقتنا به.

وليس من بين هذه الصور من «الذاتية» ما يحول دون أن تصبح حياة الشخص تافهة ومطوية. إن الحياة التي تصدر عن نزعات قوية سائدة موجهة نحو أهداف موضوعية هي وحدها التي تستطيع أن تكون وحدة كاملة راضية، أو أن تتحد اتحادا شديدا مع حياة الآخرين.

إن الجري وراء اللهو، مثله في ذلك مثل السعي وراء الفضيلة، كلاهما يعانيان من « الذاتية » والأبيقورية والرواقية تعانيان منها بنفس الطريقة. والذاتية نتيجة طبيعية لحياة يزيد فيها جانب التأمل عن جانب العمل زيادة كبيرة، ويبدو أن الأشياء تصبح مجرد أفكار إذ اقتصر الإنسان على تذكرها، أو على الرغبة فيها، دون أن يتمرس بها. إن ماهيتها الذاتية

تصبح أقل أهمية لدينا من الأثر الذي تتركه في عقولنا. ومثل هذه النتيجة كثيرا ما يكون مصدرها تقدم المدنية، لأن تقدم المدنية يقلل باستمرار من الحاجة إلى العمل النشيط، ويعطي فرصة أوسع للتأمل. ولكن التأمل لا ينشأ عنه مثل هذه النتيجة السيئة، إذا كان تفكيرا عاملا نشيطا موجها نحو تحقيق هدف ما، والتأمل السلبي هو وحده الذي يؤدي إلى «الذاتية". إن المطلوب هو المحافظة على الاتحاد الوثيق بين التأمل من جهة، والنزعات والرغبات من جهة أخرى، بحيث يصبح دائما هو نفسه نشاطا ذا هدف موضوعي، وإلا قام بين التأمل والنزعة عداء تكون نتيجته خسارة لكليهما.

ولكي نجعل حياة المتوسطين من الناس رجالا ونساء أقل تفككا وفرقة، ولكي نتيح فرصة أوسع لتحقيق النزعات الإنشائية، فلا يكفي أن نكون على علم بالأهداف التي نريد الوصول إليها، أو أن نتكلم عن محاسن الرغبات التي نود تحقيقها. بل من الضروري أن نفهم أثر النظم والمعتقدات في حياة النزعة، وأن نكتشف الطرق المثلي لتحسين هذا الأثر بتغيير النظم. وعندما يتم هذا العمل العقلي ينبغي أن نعمل على ربطه بقوة سياسية فعالة، وإلا كان تفكيرنا عقيما. والقوة السياسية الوحيدة الفعالة التي يمكن أن تساعد في إحداث التغيرات المطلوبة هي «العمل» والتغييرات المرغوب فيها هي من ذلك النوع الذي يتوقع أن يرحب بها «العمل». وبخاصة في الأوقات العصبية التي تعقب الحرب.

والعالم المتمدين مفتقر إلى تغيير أساسي إذ أردنا أن نجنبه الانهيار: تغيير في النظام الاقتصادي وفي فلسفة الحياة. وأولئك الذين يشعرون بأن الحاجة ماسة إلى هذا التغيير ينبغي ألا يقعدهم اليأس فيظلوا مكتوفي الأيدي. وبوسعنا أن نكتشف نوع التغيير المطلوب وأن

نبشر به بين الناس - ذلك النوع من التغير الذي يحافظ على كل ما هو إيجابي في المعتقدات الحيوية السائدة في عصرنا، و نحن إذا استأصلنا ما هو سلبي تافه يتبقى لدينا نسق موحد يستطيع أن يضم كل العناصر غير الرجعية البحتة. وعندما يتضح لنا نوع التغيير المطلوب، يصبح من الممكن بحث عناصره بتفصيل أوفى. إلا أنه لا فائدة من الجري وراء التفاصيل قبل أن تضع الحرب أوزارها ما دمنا لا نعرف صورة العالم الذي سوف يتخلف عن هذه الحرب. والأمر الوحيد الذي يبدو مؤكدا هو أن العالم الجديد الذي سيأتي بعدها سيكون في حاجة إلى قدر كبير من الآراء الجديدة، وذلك لأن أراء السلف التقليدية لن تكون لها قيمة تذكر. وواضح أن أكثر تصرفات الناسي أهمية لا تصدر عن الدوافع التي تؤكد لنا الفلسفات السياسية التقليدية أنها تصدر عنها. فالنزعات التي أدت إلى الحرب وعاونت على استمرارها تأتي من مصدر أشد غورا مما تصدر عنه معظم المناقشات السياسية. كما أن معارضة الحرب، لدى القلة التي عارضتها، إنما تنبعث من نفس هذه الأعماق. والنظرية السياسية التي تستطيع أن تصمد في أوقات الشدة هي تلك التي تحسب حساب النزعات التي توجد وراء التفكير الظاهري، وأن تجتذب هذه النزعات وتعمل على جعلها نزعات منتجة بدلا من أن تكون نزعات مدمرة.

ولفلسفات الحياة - إذا كانت واسعة الانتشار - تأثير بعيد المدى في حيوية المجتمع. وأكثر الفلسفات التي يقبل عليها الناس في الوقت الحاضر هي تلك التي تقول بأن دخل الإنسان هو أهم العوامل التي تؤثر في سعادته، وهذه الفلسفة - بغض النظر عن نقائصها الأخرى - فلسفة ضارة لأنها تحث الناس على استهداف غاية بدلا من تشجيع

نزعات إنشائية تتمثل فيها فردية كل شخص على حدة. كما أن الفلسفات الأكثر تهذيبا، كتلك التي يغرسها التعليم العالي في النفوس، غالبا ما تحول الاهتمام إلى الماضي بدلا من تحويله إلى المستقبل، وإلى السلوك المهذب بدلا من النشاط الإيجابي. ولم يجد الناس في مثل هذه الفلسفات تلك القوة التي تعينهم على سهولة حمل عبء التقاليد وعبء المعرفة التي تتزايد دون انقطاع.

إن العالم في حاجة إلى فلسفة أو دين يعمل على تنمية الحياة. ولكنا إذا أردنا أن نساعد على نمو الحياة فيجب أن يكون لدينا شئ آخر نقدره غير الحياة نفسها. فإن الكائن الحي الذي ليس له من هدف سوى الحياة نفسها. حيوان ليس فيه من القيم الإنسانية الحقيقية شئ، وحياة هذا هدفها لا تستطيع أن تحمي الناس بصفة مستديمة من الملل والشعور بأن كل شئ باطل. فلكي تكون الحياة إنسانية بكل ما في هذه الكلمة من معني، يجب أن نجعلها تهدف إلى تحقيق غاية يبدو خارج نطاق الحياة البشرية، غاية غير شخصية وفوق مستوى البشر، مثل الله أو الحقيقة أو الجمال. وليست الحياة نفسها غاية لمن يعملون على تنمية الحياة خيرا مما يعمل لذلك غيرهم. فهم يهدفون إلى ما يبدو أنه تجسد تدريجي، إلى خلق عنصر أبدي في حياتنا البشرية، لها سمة الخلود الذي يبدو لأخيلتنا كأنه لا يكون إلا في جنه لا كدح فيها ولا إخفاق، جنة لا يعدو عليها الزمن المفترس الذي تصل مخالبه إلى كل شئ. إن اتصالنا بهذا العالم الخالد يمدنا بقوة وسلام وطيد لا تستطيع القضاء عليهما مرارة الكفاح والإخفاق السطحي اللذين يعرضان لنا في حياتنا. والتأمل السعيد فيما هو خالد هو ما يسميه سبينوزا، محبتنا الله محبة ذهنية، تلك المحبة التي هي مفتاح الحكمة لمن عرفوها ولو مرة واحدة.

إن ما يجب علينا أن نؤديه من عمل يختلف بالقياس إلى كل منا وفق كفاياته، وما يتهيأ له من فرص، ولكن ما يجب علينا عمله، أو ما يجب علينا تركه، لا يمكن أن يتجلى لا إلا إذا كان فينا قدر من الحياة الروحية، ونحن بإيجاد رابطة بيننا وبين عالم الخلود، وبتكريس حياتنا لإشاعة جانب من الروح الإلهي في هذا العالم المضطرب، نستطيع أن نجعل من حياتنا أداة إنشائية حتى في هذا الوقت المضطرب وحتى في هذا الخضم الجياش بألوان القسوة والنضال والكراهية التي تنتابنا من كل جانب. إن جعل حياة الفرد حياة إنشائية في مجتمع يقوم على الاقتناء، أصعب من جعلها إنشائية في المجتمع الذي تستطيع الجهود البشرية أن تقيمه في المستقبل. ولابد من أن يعاني أولئك الذين كتب عليهم أن ينهضوا بتجديد العالم الأمرين من الوحشة والمعارضة والفقر وقدح القادحين. ولهذا يجب أن تكون لديهم القدرة على الحياة التي قوامها الصدق والمحبة، والتي يحدوهم فيها الأمل الذي لا يقهر، كما يجب أن يكونوا أمناء حكماء لا يهابون شيئا وأن يحدوهم غرض واحد لا يتغير. إن جماعة من الرجال والنساء هذه صفاتهم سينتصرون ولابد، وسينتصرون أول الأمر على الصعوبات وألوان الحيرة التي تكون في حياة كل فرد منهم. ثم ينتصرون بعد وقت قد يكون طويلا جدا، على من حولهم. فالحكمة والأمل هما الشيئان اللذان يحتاج إليهما العالم، وعلى الرغم من أن العالم يقف الآن في سبيلها، إلا أنه سيقدرهما قدرهما آخر الأمر.

فعندما اجتاح البرابرة روما ونهبوها سماها القديس أوجستين «مدينة الله» واستعاض بالأمل الروحي عن الحقيقة المادية التي أصابها التدمير. ثم عاش الأمل، وظل مصدرا للحياة خلال القرون التي تلت

أوجستين، بينما انحدرت روما فأصبحت قرية من العشش والزرائب. ونحن أيضا في حاجة إلى أمل جديد لنبني بتفكيرنا عالما أفضل من ذلك العالم الذي يقود نفسه إلى الدمار.

والمجهود المطلوب منا بذله في هذه الظروف السيئة أكبر مما لو كانت الظروف عادية، ولن ينقذ الأجيال القادمة من الموت الذي أصاب جيلنا هذا الذي نعرفه ونحبه إلا شعلة علوية من الفكر والروح.

وقد كان من حسن حظي أن اتصلت بصفتي مدرسا بعدد من الشباب من مختلف الجنسيات، شبان فيهم الأمل وفيهم الطاقة الإنشائية اللازمة لتحقيق جزء على الأقل من الجمال الذي يتردد صداه في نفوسهم، والذي هم به يعيشون، فجرفهم تيار الحرب، وأصبح بعضهم في هذا الجانب، وأصبح بعضهم في الجانب الآخر، وبعضهم لا يزال في ميدان القتال، وبعضهم قد قضى نحبه، وأصبح بعضهم عاجزا مدى الحياة. ومن أولئك الذين سيبقون على قيد الحياة بعد الحرب كثيرون ممن يخشى أن يكونوا قد فقدوا حياتهم الروحية، وأن يكون قد خبا فيهم ذلك الأمل فتضيع هذه الطاقة هباء، وتصبح أيامهم الباقية في هذه الحياة رحلة مرهقة إلى القبر. وتلقاء هذه المأساة كلها نرى عددا ليس بالقليل ممن يقومون بمهمة التعليم وكأنهم لا يحسون بها.

فهم يثبتون بمنطقهم القاسي الذي لا يرحم أن هؤلاء الشبان قد ضحى بهم تضحية لم يكن منها بد في سبيل بعض الغايات العامة الباردة. يقولون ذلك دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث، ثم لا يلبثون أن ينعموا ببرد الراحة بعد انفعاله طارئة. وأمثال هؤلاء قد ماتت فيهم الحياة الروحية ولو أنها كانت حية لاندفعت للقاء أرواح أولئك الشبان

يحدوها حب مكين كحب الأب والأم، غير شاعرة بأن ثمة ما يفصل نفوسهم من نفوسهم، مؤمنين بأن مأساة هؤلاء الشبان هي مأساتهم، يرتفع صوت يصيح « كلا، إن هذا ليس حقا، إنه ليس عدلا، إن هذه القضية لا يمكن أن تكون قضية مقدسة تلك التي تخبو فيها زهرة الشباب وتدمر، إننا نحن الكبار الذين أجرمنا، فنحن الذين أرسلنا هذا الشباب إلى ميدان القتال بسبب شهواتنا الخبيثة، وبسبب مواتنا الروحي، وإخفاقنا في أن نعيش كرماء مع الناس، نعيش يحدونا دفء قلوبنا، وبهدى من إيحاء أرواحنا الذي لا ينضب. فلننج بأنفسنا من هذا الموت، لأننا نحن الأموات لا هؤلاء الشبان الذين قضوا نحبهم بسبب خوفنا نحن من الحياة. إن أشباحهم أكثر منا حياة، وهي تصمنا في أعين الأجيال القادمة كلها بوصمة الخزي والعار. فمن أطيافهم لابد أن تنبثق الحياة، ونحن الذين ينبغي أن تبث أطيافهم الحياة فينا».

■ ■ ■

الفهرس



كلمة 5
من أقوال برتراند رسل 7
الفيلسوف الذى حصل على جائزة نوبل 9
الفيلسوف البريطانى برتراند رسل 15
الفيلسوف الذي جعل من الإنسان قضيته فكان الإنسان 23
من يبحث عن الموهوبين؟ 33
مغامرات مثيرة تحت الطلب 35
قصة المؤلف 37
الكتاب الذى أحدث أكبر ضجة عالمية 39
لماذا نخشى الموت؟ 111
عالمنا المجنون 117
الحب يقهر كل شيء 123
انتصار الوجود 129
التكيف - الهروب 133
زوجة حائرة 145
حلم عالم ميتافيزيقي 151
اصنع مستقبلك 157